أجاثا كريستي

الرّجل الغامض

دار النجمة للنشر والتوزيع

الرّجل الغامِض

بسم الله الرحمن الرحيم

أجاثا كريستي

الرّجل الغامِض

دار النجمة للنشر والتوزيع

جميع حقوق هذه الطبعة محفوظة للناشر:
دار النجمة للنشر والتوزيع

يُمنَع تصوير أو إعادة إنتاج هذا الكتاب
ورقياً أو إلكترونياً إلا بإذن خطي مسبَق من الناشر

للاستفسار والطلبات التجارية
AgathaBooks@sardira.com

السيد كوين

كان ذلك في عيد رأس السنة الميلادية، وكان الأعضاء الكبار المدعوون إلى حفلة عيد الميلاد مجتمعين في القاعة الكبيرة بمنزل رويستون، وكان السيد ساترويت سعيداً لانصراف الصغار إلى مضاجعهم لأنه لم يكن يحب دعاباتهم الصبيانية في مثل تلك المناسبات؛ فهو رجل في الثانية والستين من عمره جافّ العود محنيّ القامة بعض الشيء، ينم وجهه عن الفضول الشديد والاهتمام البالغ بما تنطوي عليه حياة الناس من أسرار، ويمكن القول بأنه عاش حياته كلها وهو جالس في الصفّ الأمامي يرقب ما يجري على مسرح الحياة ويشاهد الطبائع البشرية وهي تتكشّف أمام عينيه، لكنه الآن فقط بعد أن أصبح في قبضة الشيخوخة وجد نفسه شديد الميل إلى التخلّي عن موقف المشاهد وقرّر الاشتراك في مسرحية الحياة نفسها، ولم يكن ثمة أدنى شك في أنه متمتّع بالمواهب التي تمنحه الحق في تلك المشاركة، فقد كان يدرك بالغريزة متى تتجمع العناصر التي تنبئ بوقوع حادث مثير من أحداث الحياة، أيّ أنه كحصان الحروب يشتمّ رائحتها. ومنذ وصوله إلى منزل رويستون في أصيل ذلك اليوم وهو يشتمّ رائحة حادث مثير على وشك الوقوع.

ولم يكن عدد الذين دُعوا إلى الحفلة كبيراً، وكان بينهم توم إيفشام صاحب البيت، وهو رجل لطيف ودود، وزوجته المهتمّة بالشؤون السياسية والتي كانت قبل زواجها به تُدعى السيدة لورا كين. وكان بينهم أيضاً السيد ريتشارد كونوي الجندي والرحّالة والصيّاد البارع، هذا بالإضافة إلى بعض الشبان والشابات الذين لم يتذكر السيد ساترويت أسماءهم، وكذلك آل بورتال. وكان السيد والسيدة بورتال هما موضع اهتمام السيد ساترويت؛ فهو لم يكن قد رأى أليكس بورتال من قبل ولكنه كان يعرف أباه وجدّه ويعرف عنه كل شيء، وكان أليكس مثل أسلافه ذهبي الشعر أزرق العينين في نحو الأربعين من عمره شغوفاً بالرياضة والصيد واقعياً في تفكيره وسلوكه، وبالجملة لم يكن فيه ما ينمّ عن الشذوذ وإنما هو رجل إنكليزي عادي متّزن سليم التفكير. ولكن زوجته كانت تختلف عنه، فهي كما عرف السيد ساترويت أسترالية الأصل، وكان أليكس بورتال قد التقى بها هناك في أستراليا في أثناء رحلة له هناك فأحبا بعضهما بعضاً، ثم عاد بها إلى إنكلترا. ولم تكن قد شاهدت إنكلترا قبل زواجها، ومع هذا فقد أحسّ السيد ساترويت بغريزته أنها ليست كالأستراليات اللاتي شاهدهنّ، والآن هو يرقبها خلسة بدقة ويقول لنفسه: امرأة مثيرة للانتباه جداً؛ فهي تفيض بالحيوية العارمة رغم سكونها وصمتها، فهذا هو السر.

لكن السؤال المهمّ الذي ظلّ يلحّ على ذهن السيد ساترويت هو: لماذا تصبغ السيدة بورتال شعرها؟ لقد كانت الصبغة متقَنة بحيث لا يمكن أن يلحظها إلا امرأة مثلها أو

رجل ركّز انتباهه عليها مثل السيد ساترويت. وكان سرّ عجبه أن معظم النساء ذوات الشعر الأسود يصبغنه باللون الذهبي، ولكنه لم يرَ في حياته امرأة تصبغ شعرها الذهبي باللون الأسود كما تفعل السيد بورتال. لقد كان كل شيء في تلك السيدة يثير فضوله، وقد خامره الشعور بأنها إما أن تكون سعيدة جداً في حياتها أو شقية جداً، ولكنه لم يعرف أيهما أصحّ على وجه اليقين؟ وقد أحس بالضيق لهذا السبب، وأكثر من هذا شعر بأن لها تأثيراً عجيباً على زوجها!

وقال السيد ساترويت لنفسه إنه يقدّرها، ولكنه يخشاها لسبب ما، وهذا هو العجيب! لقد كان الواضح للجميع أن زوجها أليكس بورتال يسرف في الشراب ثم يختلس النظر إليها بطريقة مثيرة للانتباه والتساؤل، فأحسّ السيد ساترويت بغريزته أيضاً أن الحدث المرتقَب سيكون عن هذين الزوجين، أليكس بورتال وزوجته. وأفاق من تأملاته على قول صاحب البيت إيفشام بعد أن أعلنت الساعة منتصف الليل: لقد بدأ عام جديد الآن. أرجو أن يكون عاماً سعيداً للجميع.

فقالت زوجته السيدة لورا: بداية عام جديد تجعل الإنسان أحياناً يرتدّ بالذاكرة إلى سنوات عمره السابقة، وإلى أصدقائه الذين كان يشترك معهم في أناشيد عيد الميلاد.

وهنا قال زوجها إيفشام: يا إلهي! كفى يا لورا؛ ليس هذا الوقت مناسباً.

ثم مضى إلى لوحة مفاتيح المصابيح الكهربائية فأضاء مصباحاً آخر، بينما قالت زوجته السيدة لورا بلهجة اعتذار:

يا إلهي، ما أشد غبائي! لا شك أنني ذكّرته بصديقه الحميم السيد كابل.

فقالت إليانور بورتال بصوتها العذب الذي جعل السيد ساترويت يظن أنه سمعه من قبل: السيد كابل؟!

- نعم، وهو الرجل الذي كان يمتلك هذا البيت من قبل. لقد انتحر بأن أطلق على نفسه الرصاص كما تعلمون. يا إلهي! لن أتحدّث عنه لأن زوجي العزيز يتألم من هذا الحديث. لا شك أنها كانت صدمة عنيفة له، فقد كان هنا عندما انتحر صديقه السيد كابل، وقد كنتَ هنا أيضاً يا سيد ريتشارد، أليس كذلك؟

- بلى، كنتُ هنا يا سيدة لورا.

بعد ذلك جمعَت السيدة لورا أدوات التطريز التي بين يديها، ثم قالت وهي تنظر إلى السيدة بورتال: لقد انتهى الاحتفال بعيد رأس السنة، فماذا نفعل الآن؟

فنهضت إليانور بورتال بسرعة وقالت بغير اهتمام: إلى الفراش فوراً.

وقال السيد ساترويت لنفسه وهو يوقد لها قنديلها: إنها تبدو شديدة الامتقاع، ولم تكن كذلك عادة.

وتناولت منه القنديل في صمت ومضت ببطء نحو الدرَج المؤدي إلى الطابق الأعلى، وفجأة أحسّ السيد ساترويت برعدة تسري في كيانه وبالرغبة في المضيّ وراءها ليطمئنها؛ فقد كان يشعر أنها معرّضة لخطر ما، ولكنه لم يلبث أن أحسّ

بالخجل من نفسه، فلا شك أن أعصابه ليست كما ينبغي في هذه الليلة.

ولكنه رآها قبل أن تصعد تتلفّت وراءها وتُلقي على زوجها نظرة طويلة مركَّزة، ثم قالت وهي تصافح السيد ساترويت قبل أن تمضي: عيد ميلاد سعيد، وأرجو أن يكون أول رجل يدخل بيتنا الليلة أو غداً أسمر اللون أسود الشعر، فأنتَ تعرف هذه الخرافة يا سيد ساترويت. عجباً! ألا تعرفها؟ يقال إن الرجل الأسمر الذي يكون أول داخل إلى البيت في عيد رأس السنة يجلب معه الحظ السعيد لأصحاب البيت.

وبعد انصراف السيدتين تقارب الرجال الأربعة حول نار المدفأة وراحوا يتبادلون الحديث في شتى الموضوعات حتى طرقوا الحديث عن صاحب البيت الأسبق المنتحر، فقال السيد ريتشارد كونوي: كنتَ تعرف ديريك كابل يا سيد ساترويت، أليس كذلك؟

- بلى، كنتُ أعرفه معرفة سطحية.

- وأنتَ يا بورتال، هل كنتَ تعرفه؟

- لا، لم أرَه قط.

قالها أليكس بورتال بعنف جعل السيد ساترويت يلتفت إليه فجأة مدهوشاً، فقال إيفشام ببطء: أنا أكره دائماً أن تشير زوجتي لورا إلى هذا الموضوع؛ فهذا البيت بعد الحادث قد بِيع لرجل أعمال ثري، ولكنه بعد عام بدأ يعلن عن بيعه بثمن منخفض، كما كثُرت الشائعات عن وجود شبح فيه، وهو

شبح صاحبه المنتحر. ولما دفعتني لورا لترشيح نفسي عن دائرة كيديلبي اضطُررنا إلى البحث عن منزل مناسب للإقامة في هذه المنطقة، وقد أغراني ثمن هذا المنزل المنخفض فاشتريته. وسواء صدقت الشائعات عن وجود الشبح فيه أم لم تصُدق فالإنسان لا يحب أن يتذكّر دائماً أنه يقيم في منزل انتحر فيه صديق سابق له. مسكين ديريك كابل! نحن لن نعرف أبداً لماذا قتل نفسه؟

فقال أليكس بورتال بصوت أثقله الشراب: هو ليس أول رجل ولا آخر رجل ينتحر بلا سبب معقول.

وقال السيد ساترويت لنفسه وهو يتأمل وجه أليكس بورتال: هذا الرجل ليس في حالته الطبيعية مطلقاً. كم أتمنى لو أعرف بماذا يهذي!

وفجأة قال ريتشارد كونوي: يا إلهي! أنصتوا إلى عويل الرياح... هذه ليلة عاصفة.

فقال بورتال بضحكة مستهترة: ليلة تصلح لأن تكون مرتعاً للأشباح!

وهنا ضحك السيد ريتشارد كونوي وقال: بناءً على أقوال لورا فأشدّ هذه الأشباح سواداً سوف يجلب لنا الحظ لو دخل الآن. آه، ما هذا؟!

كان صفير الرياح قد ارتفع إلى طبقة الصراخ، ثم بدأ يتلاشى رويداً رويداً عندما سمع الجميع ثلاث طرقات عالية على باب المنزل الخشبي الضخم، فقال توم إيفشام بدهشة: تُرى من يكون الطارق الآن؟

وبعد أن حملق كل منهم إلى وجه الآخر أردف هو قائلاً: سوف أفتح الباب بنفسي؛ فالخدم نيام الآن.

اندفعت الرياح الباردة إلى الداخل عندما فتح الباب ورأى أمامه رجلاً طويلاً نحيل الجسم داكن البشرة يرتدي ملابس قيادة السيارات، ثم تقدَّم هذا الرجل إلى الداخل وهو يقول مبتسماً بلهجة اعتذار: معذرة أيها السادة، لقد تعطّلت سيارتي فجأة، وقد تركت سائقها يحاول إصلاح ما بها، وربما استغرق هذا الأمر ساعة أو أكثر والجوّ في الخارج قارص البرد، ومن ثم رأيت أن...

وتوقّف عن الكلام فجأة، فقال إيفشام متمّماً حديثه: أجل، أجل، تفضّل بالدخول. أخشى ألاّ نستطيع أن نقدّم لك أية مساعدة لإصلاح السيارة.

- حسناً، فالسائق يجيد إصلاح السيارات بوجه عام. بالمناسبة اسمي هارلي كوين.

- اجلس يا سيد كوين. أقدّم لك السيد ريتشارد كونوي، والسيد أليكس بورتال، والسيد ساترويت، وأنا توم إيفشام.

تبادل السيد كوين التحية مع كل منهم ثم جلس بالقرب من المدفأة، وبعد أن تقبّل الكأس المقدَّمة إليه من توم إيفشام شاكراً ابتدره قائلاً: إذن أنت تعرف هذه النواحي جيداً يا سيد كوين؟

- لقد مررتُ بها منذ بضعة أعوام، وكان هذا المنزل ملكاً لرجل اسمه السيد كابل.

- يا إلهي! أجل، ديريك كابل المسكين. أكنت تعرفه؟

- نعم، كنتُ أعرفه.

ثم تغيّر موقف إيفشام من الرجل الغريب في الحال، فبعد أن كان متحفّظاً معه كعادة الإنكليز إذا به يُلقي التحفظ جانباً بعد أن عرف أن هذا الغريب كان صديقاً لصديقه الراحل ديريك كابل، ومن ثم قال: هذا عجيب! لقد كُنا نتحدث عنه الآن، وقد كنتُ أنا وريتشارد كونوي في هذا البيت عندما قَتل نفسه، ورغم أنني لا أؤمن بالأشباح فأنا أتوقّع أن أرى شبحه يقتحم علينا هذه القاعة بين لحظة وأخرى.

- الواقع أن ذلك الحادث كان مفاجئاً ولا تفسير له على الإطلاق.

فهتف ريتشارد كونوي بحماسة: هو سرّ غامض وعجيب! فقد كان ديريك كابل في أوج الحياة سعيداً لا يشغله هَم من هموم الحياة، وكان قد دعا خمسة أو ستة من الأصدقاء إلى ضيافته، وكان في أثناء وجبة العشاء في أحسن حالاته النفسية والمعنوية ولا يكاد يكفّ عن الخوض في الحديث عن مشروعاته المستقبلية، ولكن ما كاد ينتهي العشاء حتى صعد فوراً إلى غرفته بالطابق الأعلى وتناول مسدّسه ثم قتل به نفسه. لماذا؟ لا أحد يعرف ولن يستطيع أحدٌ أن يعرف أبداً.

فقال السيد كوين باسماً: ألا ترى أن الإنسان لا يستطيع أن يتأكد من هذه الحقيقة يا سيد ريتشارد؟

- ماذا تعني؟

- ليس من الضروري أن يكون اللغز مستعصياً على الحلّ لأن أحداً لم يستطع أن يحلّه.

- يا إلهي! إذا لم يستطع أحد أن يحل هذا اللغز في حينه فهل يُعقَل أن يتمكّن من حلّه بعد عشر سنوات من وقوع هذا الحادث؟

فهزّ السيد كوين رأسه برفق وقال: أنا لا أتّفق معك في هذا؛ فمرور الزمن في كثير من الأحيان يجعل المؤرِّخ أقدر على فهم الأحداث وإدراك أسبابها ومسبّباتها، ولكن المهم هو أن ننظر إلى المشكلة نظرة شاملة تحيط بكل جوانبها و...

وهنا صاح بورتال قائلاً: أنتَ على حق يا سيد كوين؛ فالزمن لا يهمل المشكلة وإنما يجعل الإنسان ينظر إليها من زاوية مختلفة أو جديدة.

فابتسم إيفشام ثم قال: هل تعني -يا سيد كوين- أننا مثلاً لو عقدنا من أنفسنا لجنة تحقيق الليلة وتناولنا بالبحث الظروف والملابسات التي أحاطت بمقتل ديريك كابل، فهل تعتقد أننا قد نعرف الحقيقة كما لو كنا قد بحثنا الأمر عند وقوع الحادث؟

- بل الاحتمال الآن أقوى يا سيد إيفشام لأن النزعات الشخصية لن يكون لها وجود، ولأننا سننظر إلى الحقائق على أنها حقائق فقط دون أن ننحرف بأفكارنا ومشاعرنا ونزعاتنا الخاصة.

ولما لاح الشك على وجه السيد إيفشام استطرد السيد كوين قائلاً: وعلى الإنسان في هذه الحالة أن يبحث عن النقطة

التي يبدأ منها، ونقطة البدء تقوم عادة على نظرية ما، ولا شك أن لكل منكم رأيه أو نظريته الخاصة عن هذا الحادث. ما رأيك أنت مثلاً يا سيد ريتشارد؟

قطب ريتشارد كونوي ما بين حاجبيه منكراً ثم قال: أجل، طبعاً. لقد ظننا أن في الأمر امرأة أو أزمة مالية بطبيعة الحال، ولكن الثابت أن حالة كابل المالية كانت ممتازة، إذن فماذا يمكن أن يكون السبب غير المرأة؟

وفي تلك اللحظة جفل السيد ساترويت قليلاً، وكان قد انحنى إلى الأمام ليدلي بملاحظة بسيطة، ولكنه فوجئ حين لمح جسم امرأة منكمشة على نفسها في ركن الشرفة العليا بحيث لم يكن أحد يراها إلا من حيث يجلس هو، وكان وضعها ينمّ بوضوح عن أنها كانت ترهف أذنيها لتسترق السمع إلى كل ما يقال، وقد عرفها بسهولة عن طريق ثوبها، فهي إليانور بورتال.

وفجأة بدا كل شيء واضحاً أمامه، فوصول السيد كوين في تلك اللحظة لم يكن مجرّد مصادفة وإنما أقرب ما يكون إلى ظهور الممثل على المسرح عندما يأتي دوره، وهذه القاعة في تلك الليلة تبدو في نظر السيد ساترويت كمسرح تجري عليه إحدى مسرحيات الحياة العنيفة، وذلك رغم أن الممثل الأول فيها رجل مات منتحراً منذ عشر سنوات. أجل، إن ساترويت واثق تماماً بأن لديريك كابل دوراً رئيسياً في أحداث هذه المسرحية التي تجري أمام عينيه.

ومرة أخرى ازدادت الحقائق وضوحاً أمام عينيه فجأة،

فهذا كله من صُنع السيد كوين، وهو الذي أعدّ خشبة المسرح ويوزّع الأدوار على الممثلين ويعيش في قلب المسرحية ويشدّ خيوطها غير المنظورة ويوجّه الممثلين حسبما يريد، وهو الذي يعرف كل شيء، حتى تلك المرأة المنكمشة على نفسها في الشرفة تسترق السمع.

ورأى السيد كوين أن يستطرد في تحريك الممثلين على مسرحه بقوله: نعم، الأمر فيه امرأة طبعاً، ولا شك أنكم تحدثتم في أثناء العشاء عن المرأة، أو عن امرأة معينة.

فهتف إيفشام قائلاً: عجباً! نعم، نعم؛ فقد أعلن لنا في أثناء العشاء عن أنه يعتزم خطبة فتاة، وهذا ما جعل انتحاره يزداد غموضاً، بل وجنوناً. ولكنه كان سعيداً جداً وهو يلمّح لنا عن الخطيبة الحسناء ويقول إن الخطبة سوف تُعلَن رسمياً بعد فترة معينة من الوقت لأسباب خاصة.

فقال ريتشارد كونوي: لقد عرفنا بداهة أن هذه الخطيبة المنتظرة هي مارجوري ويلك، وهي فتاة لطيفة حسناء فعلاً.

وهنا التفت السيد كوين إلى إيفشام وقال متسائلاً: أهذا هو رأيك يا سيد إيفشام؟

- أنا لا أدري على وجه اليقين؛ فقد أعلن لنا أنه خطب فتاة جميلة وأنه (لأسباب خاصة) لن يعلن الخطبة رسمياً إلا بعد فترة معينة وأنه لا يستطيع أن يذكر لنا اسم الخطيبة إلا بعد موافقتها. ولكن المهم أنه وصف نفسه بأنه رجل محظوظ جداً، وأنه يريد أن يجعلنا كصديقين له لندرك أنه سيكون

رجلاً من أسعد الناس في حياته الزوجية في العام التالي، وبطبيعة الحال افترضنا أن الخطيبة هي مارجوري؛ فقد كانت علاقته بها وطيدة.

وعندئذ قال ريتشارد كونوي متردداً: ولكن العجيب في الأمر أنه إذا كانت الخطيبة هي مارجوري ويلك حقاً، فلماذا كان يخفي اسمها عنا؟ ولماذا كان يؤجل إعلان الخطبة رسمياً فترة من الوقت؟ لقد بدا لي عندئذ أن خطيبته سيدة متزوجة ومات زوجها حديثاً، أو طُلقت منه.

فقال إيفشام: هذا أقرب إلى المنطق الصحيح، وما دام الأمر هكذا فمن الطبيعي أن يتكتم ديريك كابل اسم الخطيبة ولا يعلن الخطبة رسمياً إلا في الوقت المناسب. وإذا أنتم عدتم بالذاكرة إلى ذلك العهد لتبينتم أنه لم يكن يلتقي بمارجوري كثيراً، فأنا أتذكّر الآن أن العلاقة بينهما قد ضعفت كثيراً قبل وفاته بعام تقريباً.

فقال السيد كوين: هذا عجيب!

- أجل، لقد بدا كأنما دخلَت في حياته امرأة أخرى.

فقال ريتشارد كونوي متأملاً: امرأة أخرى؟!

هتف إيفشام: لقد كان ديريك في تلك الليلة سعيداً إلى حد النشوة من فرط السعادة.

رفع السيد ساترويت عينيه إلى أعلى وقال لنفسه: آه، نعم، لا تزال إليانور بورتال مكوَّمة على نفسها تستَرِق السمع وكأنها -في سكونها التام- جثة هامدة.

ثم قال ريتشارد كونوي: هذا صحيح تماماً. لقد كانت عواطف ديريك مهتاجة بالسعادة، ويمكن القول بأنه كان كالمقامر الذي لعب بكل ثروته ثم ربح رغم الاحتمال الضئيل في الربح.

وهنا قال بورتال: أو لعله كان يستمد شجاعته مما عقد العزم عليه.

فقال إيفشام بعنف: لا، لا، ليس الأمر كذلك، ويمكنني أن أقسم أن شيئاً من هذا لم يخطر بباله، ولكن كونوي هو الأقرب إلى الصواب؛ فقد كان ديريك يبدو كالمقامر الذي ربح بضربة حظ أكثر مما كان يتوقع، ولهذا فهو لا يكاد يصدق أنه ربح فعلاً.

وعندئذ هز كونوي كتفيه، وقال: ومع ذلك فقد انتحر بمسدسه بعد عشر دقائق.

وخيم الصمت على الجميع، وفجأة ضرب إيفشام المائدة بقبضة يده وقال هاتفاً: لا بد أن شيئاً ما قد حدث في هذه الدقائق العشر، لا بد، ولكن ما الذي حدث؟ فلنحاول أن نفكر فيما حدث بإمعان. لقد كنا جميعاً نتحدث وفي منتصف الحديث نهض كابل وصعد إلى غرفته.

فقال السيد كوين: لماذا؟

فقطب إيفشام جبينه مفكراً ثم قال: لم نهتم في ذلك الحين بالسبب. يا إلهي، هذا هو ساعي البريد! ألا تذكر يا كونوي كيف انفعلنا عند سماعنا رنين الجرس، وكنا في ذلك

الحين محبوسين في البيت بسبب انهمار الثلوج وتراكمها حوله لمدة ثلاثة أيام؟ لقد حدثت في تلك الأيام عاصفة ثلجية لم يحدث مثلها منذ أعوام وأعوام، وكانت الطرق كلها مغلقة بسبب تراكم الثلوج فلا رسائل تصلنا ولا صحف أو مجلات. ولما رنّ الجرس ذهب ديريك كابل ليفتح الباب، وما لبث أن عاد بكومة من الرسائل والصحف، ثم فتح إحدى الصحف ليرى هل وقعت أحداث مثيرة أم لا، ثم صعد بالرسائل إلى غرفته، وبعد ثلاث دقائق سمعنا الطلق الناري... هذا شيء لا يمكن تفسيره أبداً.

فقال بورتال: بل من الممكن تفسيره، فلعل كابل قرأ خبراً لم يكن يتوقعه في إحدى الرسائل.

فقال كونوي: أتظن أننا لم نفكر في هذا الاحتمال؟ لقد كان هذا أول سؤال ألقاه المحقق علينا، ولكن ثبت أنه لم يفتح رسالة واحدة؛ فقد ظلت حزمة الرسائل على مائدة الخزينة دون أن يُفتح منها واحدة.

فقال بورتال متردداً: هل أنتم واثقون تماماً أنه لم يقرأ رسالة منها ثم دمرها أو تخلص منها بعد ذلك؟

- هذا احتمال لم نغفل عنه أيضاً، ولكننا لم نرَ في غرفته أو في المدفأة أو في أي مكان بالبيت بقايا رسالة ممزقة أو محترقة.

- هذا عجيب جداً!

فقال إيفشام بصوت منخفض: الحادث في جملته كان

رهيباً مفاجئاً لا معنى له، وما أشدّ صدمتنا حين صعدت أنا وكونوي إليه بعد أن سمعنا الطلقة النارية ووجدناه جثة هامدة.

فقال السيد كوين: ألم يكن في وسع أحدكما أن يفعل شيئاً غير الاتصال هاتفياً بمركز الشرطة؟

- لم يكن بالمنزل هاتف في ذلك الحين، ولكن حدث -لحسن الحظ- أن شرطي المنطقة كان في المطبخ عندئذ. هل تذكر يا كونوي؟ ففي اليوم السابق ضل أحد كلاب ديريك كابل طريقه في الثلوج، وهو الكلب العجوز روفر، فعثر عليه أحد الرجال وقد دُفن نصفه في الجليد فحمله إلى مركز الشرطة حيث تعرّف عليه الشرطي وعرف أنه أحد كلاب السيد كابل الأثيرة لديه، وقد حمله في اليوم التالي إلى البيت. وكان وصول الشرطي بعد صعود كابل إلى غرفته بدقيقتين تقريباً لأنني أذكر أننا سمعنا الطلق الناري بمجرد دخوله إلى المطبخ ليصنع لنفسه قدحاً من شاي. يا الله! لقد أنقذ وجود هذا الشرطي موقفنا من الحرج الشديد.

قال كونوي مرتداً بذاكرته إلى تلك الأيام: يا للهول، ما أفظع تلك العاصفة الثلجية التي كانت تهبّ يومذاك! أعتقد أننا كنا في أوائل شهر كانون الثاني (يناير).

- لا، لقد كنا في شهر شباط (فبراير) لأننا قمنا برحلة إلى خارج البلاد بعد الحادث بوقت قصير.

- أنا واثق أن الوقت كان في شهر كانون الثاني لأن العجوز نيد حارس الصيد في مزرعتي... هل تذكر نيد؟ قد

أصيب في ساقه، وكان ذلك في أواخر شهر كانون الثاني، بعد الحادث بأيام قليلة.

- إذن لا بد أن ما حدث كان في أواخر شهر كانون الثاني. حقاً ما أصعب أن يذكر الإنسان التاريخ الصحيح لمثل هذه الأحداث بعد مرور سنوات عدة!

وهنا قال السيد كوين: هذا من أصعب الأشياء على الذاكرة فعلاً، ولكن الإنسان قد يتذكر بدقة حادثاً معيناً في حياته إذا كان حدوثه في أثناء وقوع حادث عام مثير مثل مقتل ملك أو نظر قضية كبيرة.

فصاح كونوي: أجل، أجل. ما أعجب هذا! لقد وقع الحادث قبل قضية أبلتون مباشرة.

- أتعني بعدها مباشرة؟

- لا، لا. ألا تذكر؟ لقد كان ديريك كابل يعرف آل أبلتون، وكان قد أمضى الربيع الأسبق مع العجوز أبلتون، أي قبل موته بأسبوع. والواقع أن ذلك العجوز أبلتون كان رجلاً بغيضاً، ولا شك أن زوجته الشابة الحسناء عانت الكثير في حياتها معه، ولم يكن ثمة ما يدعو إلى الريبة يومذاك في أنها هي التي وضعت السُّم له.

فقال إيفشام: آه! نعم؛ أنا أتذكر الآن أنني قرأتُ فقرة في الصحيفة التي أحضرها ساعي البريد مع رسائل ديريك كابل، وقد جاء فيها أن أمراً صدر باستخراج جثة العجوز أبلتون لتشريحها ومعرفة سبب الوفاة. لقد قرأتُ هذا النبأ بغير اهتمام

لأنني كنتُ أفكر وقتئذ في جثة صديقي ديريك الهامدة الملقاة في غرفته بالطابق الأعلى.

فقال السيد كوين: هذه ظاهرة فكرية عجيبة رغم شيوعها، وهي أن التفكير في ساعة الأزمات كثيراً ما يتركز في أشياء تافهة تظل عالقة بذهن الإنسان سنوات عديدة، ويبدو أنها تُنقَش في الذهن بسبب حالة الانفعال الشديد الذي يعانيه الإنسان في ساعة الأزمة.

فقال كونوي: صدقتَ يا سيد كوين؛ فقد شعرتُ فجأة -وأنت تتحدث الآن- أنني انتقلتُ إلى غرفة ديريك كابل حيث كان ملقى على الأرض جثة هامدة، وقد رأيتُ بوضوح الشجرة الكبيرة القائمة أمام النافذة وظلالها على الثلوج من تحتها. أجل، كل شيء يتراءى لي الآن خارج النافذة واضحاً في ضوء القمر... الشجرة والظلال والأرض المكسوة بالجليد. عجباً! أنا أكاد أرى كل شيء أمامي الآن، بل أنا أستطيع أن أرسمها بدقة، ومع ذلك فلم أكن أدري حينذاك أنني تعمدتُ النظر إلى هذا كله.

فسأل السيد كوين: كانت غرفته هي القائمة فوق الشرفة السفلية الكبيرة، أليس كذلك؟

- نعم، وكانت الشجرة، شجرة زان كبيرة، قائمة في منعطف الممر المؤدي إلى البيت.

أومأ السيد كوين برأسه، فازداد انفعال السيد ساترويت وهو يدرك أن كل كلمة وكل نبرة في صوت السيد كوين تحمل

في طياتها معنى معيناً. لقد كان يهدف إلى شيء ما، ولكن السيد ساترويت لم يكن يعرف ما هو ذلك الشيء على وجه اليقين.

وبعد لحظة ساد فيها الصمت عاد إيفشام إلى الحديث عن الموضوع السابق: أنا أتذكر قضية أبلتون الآن. ما أشد الضجة الاجتماعية التي أثارتها يومذاك! ولكن السيدة أبلتون الحسناء نجت من حبل المشنقة، أليس كذلك؟ لقد كانت جميلة شقراء ذهبية الشعر إلى حد يجبر الإنسان على النظر إليها.

وخُيل إلى السيد ساترويت أنه رأى المرأة التي تستَرِق السمع في الشرفة العليا تزداد انكماشاً على نفسها، ولكنه فوجئ بصوت كأس يتحطم على الأرض، فالتفت ليرى أليكس بورتال يقول باضطراب واعتذار: أنا آسف؛ لقد وقعت الكأس من يدي. لا أدري ماذا دهاني!

فقال إيفشام ليهدئ من روعه: لا عليكَ يا صديقي العزيز. هذا عجيب! تحطُّم هذه الكأس يذكرني بشيء ما في قضية أبلتون. آه، لقد حطَّمت السيدة أبلتون قنينة الشراب التي تعوّد زوجها أن يشرب منها كأساً كل ليلة.

- نعم، نعم. لقد شاهدها أحد الخدم تأخذ القنينة وتحطمها عمداً بعد وفاة زوجها بيوم، وقد أثار تصرفها هذا تعليقات الخدم بطبيعة الحال؛ فقد كانوا جميعاً يعلمون أنها شقية في حياتها مع زوجها، ثم ازدادت الأقاويل وانتشرت الشائعات. وأخيراً، وبعد شهر من الوفاة، قدم بعض أقارب المتوفى طلباً لاستخراج الجثة وتشريحها، وكانت المفاجأة

الكبيرة أن التشريح أثبت وفاة الزوج العجوز بسم الزرنيخ، أليس كذلك؟

- لا، بل بالإستركنين على ما أذكر، ولكن ليس هذا مهما وإنما المهم أنه مات مسمماً وأن الاتهام تركز في شخص واحد، وهو زوجته الشابة الحسناء. وقد قُدمت إلى المحاكمة، ثم أُطلق سراحها لعدم كفاية الأدلة لا لثبوت براءتها. والواقع أن الحظ كان معها، فأنا لا أشك في أنها هي الفاعلة، ولا أدري ماذا حدث لها بعد ذلك.

- لقد رحلت إلى كندا -على ما أظن- أو إلى أستراليا؛ فقد كان لها عمٌّ في مكان ما وراء البحار عرض عليها الالتجاء إليه، وخيراً فعلت.

ولاحظ السيد ساترويت كيف كان السيد بورتال يقبض على كأسه بعنف حتى أوشكت أن تتحطم بين أصابعه، أما إيفشام فقد قال وهو يملأ كأسه: حسناً، نحن لم نعرف بعدُ لماذا انتحر المسكين ديريك كابل، كما أن التحقيق في سبب انتحاره لم يسفر عن شيء أيضاً. أليس كذلك يا سيد كوين؟

وهنا أرسل السيد كوين ضحكة عجيبة ساخرة أثارت دهشة الجميع، ثم قال: معذرة أيها السادة، أنتم لا تزالون تعيشون في الماضي بنفس مشاعركم ونظراتكم ونزعاتكم بالنسبة لحادث المسكين ديريك كابل، أما أنا الغريب فأنظر إلى الحقائق المتسلسلة نظرة خالية من العواطف الشخصية.

فقال إيفشام: ماذا تعني يا سيد كوين؟

- هلمَّ نرجع بأفكارنا إلى سنوات عشر لنرى ماذا حدث من وجهة النظر المحايدة.

ثم نهض بقامته الطويلة فوقف وظهره إلى المدفأة وقال بصوت هادئ كأستاذ محاضر: لقد كنتم تتناولون العشاء، وفي أثناء ذلك أعلن ديريك عن خطبته فظننتم أنه يقصد مارجوري ويلك، ولكنكم الآن غير واثقين بأنها هي الخطيبة التي كان يعنيها. وكان هو في حالة ابتهاج شديد كرجل استطاع أن ينجح في أمر مستحيل، ثم رنّ الجرس واستلم البريد الذي تأخر ثلاثة أيام بسبب العاصفة الثلجية، وقد ثبت أنه لم يفتح خطاباً، ولكنكم ذكرتم أنه فتح إحدى الصحف ليقرأ آخر الأنباء. وقد مضى على تلك المشاهدات عشر سنوات، فلعله قرأ يومذاك عن أزمة سياسية أو زلزال في مكان بعيد... نحن لا ندري، ولكن النبأ الذي ورد في الصحيفة يقيناً هو صدور الأمر الرسمي باستخراج جثة السيد أبلتون لتشريحها ومعرفة سبب الوفاة.

- ماذا؟!

استطرد السيد كوين في حديثه قائلاً: بعد ذلك مباشرة صعد ديريك كابل إلى غرفته، ومن هناك رأى شيئاً من النافذة؛ فقد ذكر لنا السيد ريتشارد كونوي الآن أن الستائر لم تكن مسدلة وأنه رأى الشجرة والممر وضوء القمر على الجليد عند صعوده إلى الغرفة بعد الحادث، فماذا رأى ديريك في تلك اللحظة مما جعله يلجأ إلى الانتحار مرغَماً؟

- ماذا تعني؟ ماذا عساه قد رأى؟

- أعتقد أنه رأى شرطيا، الشرطي الذي جاء يحمل الكلب الضال! ولكن ديريك كابل لم يكن يعرف هذه الحقيقة، وإنما ظن أن الشرطي أتى لغرض آخر.

وصمت السيد كوين برهة حتى يجعل معاني كلماته تترسب في نفوس المستمعين، فهتف إيفشام فجأة قائلاً: يا إلهي! لا بد أنك لا تعني هذا، لا تعني أنه قاتل العجوز أبلتون، أليس كذلك؟ لقد مات الرجل بعد انصراف ديريك من ضيافته بأسبوع، وكان العجوز يقيم مع زوجته فقط عندما حدثت الوفاة.

- ولكنه كان هناك قبل الوفاة بأسبوع، وكان في مقدوره أن يضع الإستركنين في قنينة حفظ الشراب. والإستركنين -كما نعرف جميعاً- لا يذوب بسهولة في الكحول، ومن ثم يترسب في قاع القنينة وتحدث الوفاة به عندما يشرب الإنسان الكأس الأخيرة أو قبل الأخيرة. فإذا كان من عادة الضحية أن يشرب في كل يوم كأساً واحدة فإن قنينة حفظ الشراب لا تفرغ إلا بعد عشرة أيام أو أكثر عادةً.

وهنا وثب السيد بورتال وقال بعنف: ولكن لماذا؟ لماذا حطمَت هي القنينة عمداً؟ لماذا؟ أخبروني لماذا؟

ولأول مرة اتجه السيد كوين بالحديث إلى السيد ساترويت وقال له: أنت واسع الخبرة بالحياة يا سيد ساترويت، ولعلك تستطيع أن تخبرنا: لماذا؟

فتهدج صوت السيد ساترويت وهو يدرك أن عليه أن

يلعب دوره على مسرحية الحياة هذه بعد أن ظلّ في مقاعد المتفرجين، ثم قال بتواضع: أعتقد أنها كانت تحب ديريك كابل، وكانت في الوقت نفسه سيدة شريفة مخلصة لزوجها، فطلبَت من ديريك أن يرحل من البيت قبل أن تتمادى في حبه. ولما مات زوجها خامرها الشك في ديريك وظنت أنه هو الذي وضع سمُّ الإستركنين في قنينة حفظ الشراب فبادرَت إلى تحطيمها حتى تنقذه من المحاكمة، وأعتقد أنه أقنعها -فيما بعد- بأنه لا أساس لشكوكها فقبلت الزواج به، ولكنها طلبَت منه أن يمهلها فترة من الوقت؛ فللنساء غرائز حادة مرهفة عادة.

فرغ السيد ساترويت من أداء دوره، وسرت في الجو همهمة زفرة طويلة جعلت إيفشام يقول مدهوشاً: يا إلهي! ما هذا؟

وكان في استطاعة ساترويت أن يقول له إنها إليانور بورتال المختبئة في الشرفة العليا، ولكنه آثر ألاّ يفسد ذلك الجو المفعم بالإثارة والتشويق. ثم ابتسم السيد كوين قائلاً: أعتقد أن السائق قد أصلح الخلل في سيارتي الآن. أنا أشكر لك حسن ضيافتك لي يا سيد إيفشام، ولعلي أديتُ خدمة لصديقي.

وبينما كان الجميع يحدقون النظر إليه في دهشة استطرد قائلاً: هذا الجانب من الموضوع لم يخطر ببالكم. لقد أحب تلك السيدة أبلتون الشابة الحسناء، أحبها إلى حد الاندفاع في ارتكاب جريمة قتل، ولما أدرك أن الأمر قد انكشف قتل نفسه تاركاً الحبيبة تواجه الموقف العصيب بمفردها.

فقال إيفشام: ولكن التهمة لم تثبت عليها؟

- نعم، وذلك لضعف الأدلة، لكن لعلها لا تزال تواجه هذا الموقف العصيب حتى الآن.

تهالك أليكس بورتال في مقعده وأخفى وجهه بين يديه، واستدار السيد كوين إلى ساترويت وقال: طاب يومك يا سيد ساترويت، لا شك أنكَ مهتم بهذه المسرحة الواقعية، أليس كذلك؟

فأومأ السيد ساترويت برأسه مدهوشاً، وبعد أن حيا كوين الجميع استدار ومضى فجأة كما أقبل عليهم فجأة. ثم صعد السيد ساترويت إلى غرفته في الطابق الأعلى، وبينما هو يدلي الستائر على النافذة لمح السيد كوين وهو يمضي في الممر إلى سيارته، وفجأة فُتح باب جانبي من المنزل وخرجت منه امرأة تجري، فلما لحقت بالسيد كوين تبادلت معه كلمات قليلة ثم عادت إلى المنزل.

وبينما هي تقترب من نافذة السيد ساترويت فوجئ بالتغيير الهائل الذي طرأ على وجهها، فبعد أن كان شاحباً جامداً إذا به وجه جديد، وجه مفعم بالحيوية وحب الحياة، وجه امرأة سعيدة كأنها في حلم بهيج.

- إليانور.

ثم انضم زوجها أليكس بورتال إليها وهو يردف قائلاً: إليانور، اغفري لي واصفحي عني. لقد كنتِ صادقة في حديثكِ معي عن هذه المأساة ولكنني لم أستطع تصديقكِ، هل يمكن أن تغفري لي؟

ولما كان السيد ساترويت رجلاً مهذباً لا يحب استراق السمع، رغم اهتمامه بأسرار الناس، فقد رأى أن يغلق النافذة. ولكنه أغلقها ببطء، وقد استطاع أن يسمع -قبل أن يتم إغلاقها- إليانور وهي تقول: أنا أعرف، أنا أعرف. لقد كنتَ تعيش معي في جحيم يا أليكس. وقد عانيتُ هذا الشعور بنفسي ذات مرة؛ فقد أحببت ديريك كابل، وعندما شككتُ في أنه قاتل زوجي السابق أبلتون عشتُ في جحيم من الشك والحب، ولا شك أن هذا شعورك معي وأنت تظن أنني القاتلة. لقد ظل الحب والشك في نفسكَ يتصارعان طوال هذه السنين، وكنتُ أنا أيضاً أعيش معكَ في جحيم لأنني كنتُ أدرك أنكَ -رغم حبك لي- تخشاني وتخشى أن أقتلك يوماً، كما ظننتَ أنني قتلتُ زوجي السابق! وأخيراً جاء هذا الرجل الغريب الذي ظهر واختفى كالشبح، فوضع الأمور في نصابها وأنقذنا أنت وأنا مما نعانيه، بل وأنقذني أنا من الموت. نعم؛ فقد كنتُ أنوي الليلة أن أنتحر بعد أن نفد صبري. أليكس، أليكس...

* * *

شبح النافذة

قالت الليدي سينيثيا وهي تقرأ بصوت مسموع للسيد ساترويت النبأ التالي في إحدى الصحف اليومية: يقيم السيد والسيدة أنكرتون في بيتهما «جرينواي هاوس» حفلة في نهاية هذا الأسبوع، وسيكون من بين المدعوين: الليدي سينيثيا دريج والسيد رتشارد سكوت وزوجته والميجور بورتر والسيدة ستافرتون والكابتن ألينسون والسيد ساترويت.

ثم أردفت قائلة وهي تطرح الصحيفة جانباً: من الجميل أن يعرف الإنسان من هم المدعوون الذين سيكون بينهم في حفلة ما.

أومأ لها السيد ساترويت برأسه موافقاً، بينما استطردت هي قائلة: مثلاً، هل تعرف السيد رتشارد سكوت؟

- نعم، نعم، أليس هو صياد الوحوش المشهور؟

- إنه هو، «صياد النمور والسباع» كما تقول الأغنية، وهو نفسه سبع كبير، ولا شك أن آل أنكرتون مسرورون بقبوله الدعوة. ثم هناك عروسه الحسناء، إنها طفلة جذابة فاتنة

لا يزيد عمرها عن عشرين عاماً بينما لا يقل هو عن الخامسة والأربعين من العمر. يا لها من مسكينة!

وكانت الليدي سينيثيا نفسها سيدة في نحو الأربعين، تسرف في وضع مساحيق الزينة على وجهها الجامد الحازم الذي تطلع إليه ساترويت وهو يسأل مندهشاً: مسكينة، لماذا؟

فألقت عليه الليدي نظرة عتاب، ولكنها استطردت تقول: أما الميجور بورتر فلا بأس. إنه أحد صيادي الوحوش في أفريقيا، ملوح الوجه، هادئ، قليل الكلام، صديق حميم لرتشارد سكوت، كما أنه معجب به كل الإعجاب. وأنا أعتقد أنه كان معه في تلك الرحلة.

- أية رحلة؟

- الرحلة داخل أفريقيا التي أعدتها السيدة ستافرتون. أخشى أن تقول إنك لم تسمع أيضاً عن السيدة ستافرتون؟

- بل سمعت عنها.

فغمزت الليدي بعينها وقالت: ما كان ينبغي أن يجمع آل أنكرتون في حفلتهم بينها وبين رتشارد سكوت بعد أن تزوج أخيراً، فقد كانت السيدة ستافرتون في تلك الرحلة الأفريقية ولاكت الألسن الأقوال عن علاقتها الغرامية برتشارد.

- ولكن المهم هو كيف قبلت هذه المرأة دعوة آل أنكرتون؟

- لعلها لم تعرف أن رتشارد وزوجته سيكونان من المدعوين.

- إنها تعرف ذلك تماماً، وأعتقد أنها امرأة خطيرة لا تتراجع عن هدف من أهدافها. إنني أرثي لرتشارد منذ الآن.

- وزوجته؟ هل تعرف شيئاً عن علاقة زوجها السابقة بالسيدة ستافرتون؟

- لا، ولكن تأكد أن بعض المدعوين سيتطوعون لإخبارها عاجلاً أو آجلاً.

* * *

- آه، هذا هو جيمي ألينسون. يا له من شاب لطيف، فقد كان لطيفاً جداً معي أثناء زيارتي لمصر في الشتاء الماضي. مرحباً جيمي، تعال هنا.

أطاع الكابتن ألينسون وجلس معهما في الشرفة. وكان شاباً في الثلاثين من عمره، وسيماً لطيفاً يتمتع بأسنان ناصعة البياض، وقد قال في مرح: يسرني أنني وجدت من يريدني، فإن المدعوين جميعاً مشغولون في هذه اللعبة أو تلك، وقد خشيت أن تهتم مضيفتي، السيدة أنكرتون، بأمري فتكون الطامة الكبرى.

فضحكت الليدي سينيثيا بينما استطرد جيمي قائلاً: وأسوأ من هذا، خشيت أن تقص عليّ السيدة أنكرتون قصة شبح الأسرة.

فصاحت الليدي سينيثيا قائلة: شبح أسرة أنكرتون؟ يا للهول!

وهنا قال السيد ساترويت بهدوء: لا، ليس شبح آل أنكرتون. إنه شبح آل جرينواي الذين كانوا يملكون هذا

المنزل، فقد اشترى أنكرتون هذا البيت والشبح معه.

- آه، إنني أتذكر الآن، ولكنه ليس شبحاً يفاجئ المقيمين في البيت بصليل سلاله، وإنما هو -على ما أذكر- شبح نافذة.

فقال الكابتن ألينسون في دهشة: نافذة؟!

ولم يجب السيد ساترويت عندئذٍ، وإنما كان مشغولاً بالنظر إلى ثلاثة أشخاص متجهين نحو المنزل: فتاة ممشوقة القوام بين رجلين كل منهما طويل القامة ملوح البشرة سريع النظرات، وفيما عدا هذا فلم يكن ثمة تشابه.

إن أحدهما هو الرحالة رتشارد سكوت، وكان رجلاً قوي المظهر عارم الشخصية جذاباً في سلوكه وتصرفاته. أما الميجور بورتر، صديقه وزميله في الصيد، فكان جامد الوجه هادئ السمات، تنم عيناه الزرقاوان على التفكير والتأمل المستمر. وبينهما كانت تسير ميورا سكوت، عروس رتشارد التي تزوجها قبل ذلك بثلاثة أشهر. وكانت فتاة ممشوقة القوام ذات عينين واسعتين كستنائيتين وشعر ذهبي اللون يميل إلى الحمرة، ويدور حول وجهها شيء كأنه هالة من نور.

قال ساترويت لنفسه: لا ينبغي أن تصاب مثل هذه الطفلة بأي سوء. إن من العار أن تعاني طفلة كهذه من شرور البشر.

وحيّت الليدي سينيثيا القادمين بيدها وبفيض من عبارات الترحيب، ثم قالت: اجلسوا ولا تقاطعوا السيد ساترويت، فسوف يقص علينا قصة شبح.

قال رتشارد سكوت: شبح جرينواي؟

- نعم، أتعرف قصته؟

- نعم، لقد كنت أتردد من قبل على هذا البيت قبل بيعه لآل إليوت، وهم يسمون الشبح «الفارس الرقيب»، أليس كذلك؟

وهنا تمتمت زوجته بصوتها الناعم قائلة: الفارس الرقيب؟! يبدو أن القصة ممتعة حقاً. حدثنا عنها يا سيد ساترويت.

وحاول ساترويت أن يروغ بأن أوضح لهم أنها قصة خيالية من عامل التشويق، ولكنهم ألحوا عليه فلم يجد مفراً من الحديث فقال: أعتقد أن القصة الأصلية تدور حول فارس كان جداً لأسرة آل إليوت، وكان لزوجته عشيق من حزب معارض. وقد فر هذا العشيق هارباً مع الزوجة بعد أن قتل الزوج في إحدى غرف الطابق العلوي، ولكن أثناء فرار العشيقين من البيت استدارا إليه فشاهدا في نافذة الغرفة التي كانت مسرحاً للجريمة وجه الزوج القتيل يراقبهما. هذه هي الأسطورة كلها، لكن الذي حدث بعد ذلك أن زجاج نافذة تلك الغرفة كان يبدو من قريب نظيفاً لا أثر للبقع فيه، لكن الناظر إليه من بعيد يخيل إليه أنه يرى وجه فارس رقيب يظهر خلفه.

رفعت السيدة سكوت رأسها ونظرت إلى واجهة المنزل وهي تسأل: أية نافذة هي؟

- إنك لا ترينها من هذا المكان لأنها في الجانب الخلفي من المنزل، وقد كسيت جدرانها بالألواح الخشبية منذ أربعين عاماً تقريباً فأغلقت الألواح النافذة من الداخل.

- ولماذا فعلوا ذلك؟ فقد خيّل لي أنك ذكرت أن الشبح لا يخرج من الغرفة.

- نعم، ولكن الخرافات كثرت حول ذلك الشبح فآثر أصحاب المنزل السابقون وضع حد لتلك الخرافات.

وعندئذٍ استطاع بلباقة أن يدير دفة الحديث إلى موضوع آخر، وهو موضوع الرجم بالغيب عن طريق الرمل أو ورق اللعب أو القواقع الجافة. وهنا قال رتشارد ضاحكاً: لقد حاولت ميورا أن تغري غجرية من الراجمات بالغيب بأن تنبئها عن المستقبل، ولكن العرّافة أعادت إليها النقود ورفضت أن تقول لها شيئاً.

فردت ميورا: لعل في صفحات مستقبلي أحداثاً رهيبة، فرفضت أن تصدمني بها.

فقال لها الكابتن ألينسون باسماً: أوه! لا تركني إلى التشاؤم يا سيدة سكوت، فأنا أحد الذين يؤمنون بأن أفراح الحياة بانتظارك دائماً.

قال السيد ساترويت لنفسه: أرجو ذلك، لكن...

وفجأة نظر أمامه بسرعة فرأى سيدتين تخرجان من المنزل، إحداهما بدينة قصيرة سوداء الشعر ترتدي ثوباً من الحرير الأخضر، والثانية طويلة القامة في ثوب من الحرير الأبيض. السيدة الأولى كانت السيدة أنكرتون المضيفة، أما السيدة الثانية فلم يكن ساترويت قد رآها من قبل.

قالت السيدة أنكرتون في زهو: هذه السيدة ستافرتون قد وصلت أخيراً. أعتقد أن المدعوين جميعاً قد تكامل عددهم.

وركز ساترويت نظراته على السيدة ستافرتون فرآها طبيعية في حركاتها وفي حديثها. وقالت لرتشارد سكوت في غير مبالاة: مرحباً رتشارد، يخيّل إليّ أنني لم أرك منذ أجيال وأجيال، وإنني أقدم أسفي حيث لم أتشرف بالحضور إلى حفلة زواجك. أهذه عروسك؟ لا شك أنك -يا عزيزتي- قد مللت الجلوس مع أصدقاء زوجك الصيادين الملوَّحي الوجوه دائماً.

فردت ميورا برقة وخجل، بينما كانت السيدة ستافرتون ترقبها بنظرات سريعة، ثم إذا بها تتحول بسرعة إلى الكلام مع الليدي سينيثيا بنفس البساطة والخفة. فأدرك ساترويت أنه أمام امرأة خطيرة حقاً تعرف كيف تخفي مشاعرها خلف ستار من اللطف والنعومة، امرأة ذهبية الشعر عيناها زرقاوان وصوتها ذو رنين خاص، كما أنها مضيئة بالابتسام.

وجلست إيريس ستافرتون لتغدو منذ اللحظة الأولى موضع اهتمام الجميع، وهذا ما أدركه ساترويت على الفور. وتذكر فجأة أن الميجور بورتر عرض عليه أن يتمشيا قليلاً في الغابة المجاورة، فنهض وأومأ له، وما لبثا أن سارا في الممر المؤدي إلى خارج المنزل.

قال الميجور: إن قصة الشبح التي حدثتنا بها الآن عجيبة حقاً.

– لسوف أطلعك على النافذة التي كان شبح الفارس يظهر وراءها.

ومضى به إلى الجانب الغربي من المنزل. وهناك كانت حديقة صغيرة تابعة للمنزل تسمى «الحديقة الخاصة» لأنها محجوبة عن الخارج بسور مرتفع تعلوه النباتات المتسلقة، وحتى الممر المؤدي إليها كان حلزونياً متعرجاً يحف به السور المرتفع ذو النباتات المتسلقة.

وعندما يدخل الإنسان إلى هذه الحديقة الخاصة يشعر أنه في عزلة تامة عن العالم وأنه قد أصبح في عالم خاص جميل كله زهور وشذى وخضرة دائمة. وعندما بلغا منتصف الحديقة أشار ساترويت إلى المنزل الذي كان يمتد من الشمال إلى الجنوب، أما الجانب الغربي الضيق فقد كانت ثمة نافذة في الطابق الأول الذي يعلو الطابق الأرضي تكاد النباتات المتسلقة تبلغ حافتها، وظهر أن زجاجها مغلف من الداخل بألواح خشبية.

فقال ساترويت مشيراً إليها: تلك هي النافذة. إن الألواح الخشبية تخفيها من داخل الحجرة.

واشرأبّ الميجور بورتر بعنقه ثم قال وهو يحملق في زجاج النافذة: ها! إنني لا أرى أكثر من لون حائل في أحد الألواح الزجاجية لا أكثر.

– لأنك شديد القرب من النافذة، ولكن هناك مرتفعاً خالياً من الشجر في الغابة القريبة يمكنك أن تلقي نظرة منه على النافذة من بعيد.

ومضى مع بورتر إلى خارج الحديقة الخاصة، ثم انعطف يساراً وتقدم في الطريق إلى الغابة. وكان يقول في طريقه بحماس: لقد أنشؤوا نافذة أخرى في الجانب الجنوبي من المنزل، أي الجانب الذي كنا نجلس فيه منذ لحظات، ويلوح لي أن رتشارد سكوت وزوجته سينزلان في هذه الغرفة بالذات مما جعلني أمتنع عن الاستطراد بالكلام عن الشبح، فقد خشيت أن تضطرب أعصاب السيدة سكوت حين تعلم أنها تنام في غرفة مسكونة بشبح قتيل.

- آه، فهمت.

ونظر إليه ساترويت بسرعة، فأدرك من سمات الشرود البادية عليه أنه لم يسمع منه كلمة واحدة. واستطرد يقول كأنما يحدث نفسه: نعم، ما كان ينبغي أن تحضر إلى هذا البيت أبداً.

وكان الناس عادة يتحدثون مع ساترويت باعتباره شخصية سلبية لا وزن لها في مشكلات الحياة، ولكنه قال متجاوباً في الحديث (وهو يظنه يتحدث عن السيدة ستافرتون): هل هذا رأيك؟

- لقد كنت مشتركاً في تلك الرحلة، رتشارد وأنا وإيريس ستافرتون. إنها امرأة رائعة وصيادة بارعة، فلماذا دعوها إلى هذه الحفلة؟

فهز ساترويت كتفيه قائلاً: ربما لجهلهم بالحقيقة. سوف يحدث بعض الاضطراب، وينبغي أن نكون على حذر ومستعدين لبذل كل جهدنا كي تمر نهاية الأسبوع على خير.

- ولكن السيدة ستافرتون لا شك...

- إنني أتحدث عن سكوت. أترى أن علينا أن نهتم بأمر السيدة سكوت، العروس الشابة، إذا هي عرفت الحقيقة؟

وبعد برهة صمت قال ساترويت: كيف التقى رتشارد سكوت بعروسه؟

- في الشتاء الماضي، في مصر. واشتغل لهيب الحب بينهما سريعاً، وتمت الخطبة في ثلاثة أسابيع والزواج في ستة أسابيع.

- الواضح أنها فتاة جذابة.

- إنها فعلاً جذابة وجميلة وهو يقدسها، ولكن هذا لا يعني شيئاً.

وفجأة عاد يقول بلهجة من يحدث نفسه: اللعنة على كل شيء، ما كان ينبغي أن تحضر.

وكانا قد وصلا عندئذٍ إلى المرتفع في الغابة، فاستدار ساترويت وأشار إلى النافذة قائلاً: انظر.

ورغم شفق الغروب فقد كانت النافذة واضحة، وكان يبدو أن وجه رجل يطل من وراء الزجاج وعلى رأسه قلنسوة فارس عليها ريشة طائر. فقال بورتر: هذا عجيب، عجيب جداً! ماذا يحدث مثلاً إذا تحطم هذا اللوح الزجاجي؟

فابتسم ساترويت قائلاً: هذه إحدى الجوانب المدهشة في القصة. لقد استبدل لوح الزجاج هذا إحدى عشرة مرة، وربما أكثر، وكانت آخر مرة منذ اثني عشر عاماً. ولكن البقع التي

يتكون منها شكل وجه الشبح لا تلبث أن تظهر ثانية، وهي لا تظهر دفعة واحدة بل تنتشر انتشاراً حتى يتكون شكل الوجه والقلنسوة خلال شهرين عادة.

وللمرة الأولى لاح الاهتمام الشديد على وجه الميجور بورتر، فسرت في جسمه رعدة خفيفة وهو يقول: شيء عجيب! وكم من الظواهر في الحياة ليس لها تعليل. لكن ما نفع ألواح الخشب وراء الزجاج إذن؟

– لقد انتشرت إشاعة بأن الغرفة منحوسة، فقد كان إيفشام مقيماً بها عندما طلق زوجته، وكان ستانلي وزوجته مقيمين بها عندما نزلا ضيفين على إيفشام فلم يلبث ستانلي أن هرب مع فتاة من بنات الليل.

فرفع بورتر حاجبيه في دهشة وقال: فهمت، إن الخطر في الغرفة ليس على الحياة وإنما على الأخلاق؟

فقال ساترويت لنفسه: ويقيم بها الآن سكوت وامرأته، ترى ماذا سيحدث؟

وسارا في طريق العودة إلى المنزل صامتين، كل منهما يسير في سكون على العشب الأخضر مستغرقاً في أفكاره. وحينما كانا ينعطفان في الممر المؤدي إلى الحديقة الخاصة سمعا صوت إيريس ستافرتون ينساب وهي تقول بحدة: ستندم على هذا، نعم، ستندم على هذا!

ورد سكوت بصوت مضطرب غير مسموع. ومرة أخرى ارتفع صوت إيريس ستافرتون عنيفاً حاداً من قلب الحديقة

الخاصة: الغيرة؟ إنها تدفع بالإنسان إلى الجحيم، إنها الجحيم نفسه، فهي تدفع المرء إلى ارتكاب جريمة قتل. فكن على حذر يا رتشارد. نعم، كن على حذر.

وعندئذٍ خرجت أمامهما من الحديقة الخاصة، ثم انحرفت عند منعطف المنزل دون أن تراهما وسارت بسرعة وخفة وكأنما هي تجري خائفة من شيء.

وفكر ساترويت مرة أخرى في كلمات الليدي سينيثيا. حقاً إن هذه المرأة خطيرة! وشعر لأول مرة بذلك الإحساس الذي يجعله يتوقع حدوث مأساة في وقت قريب. ولكنه في ذلك المساء خجل من مشاعره المنطوية على الخوف والتشاؤم، فقد بدا كل شيء طبيعياً لطيفاً، فإيريس ستافرتون لا يبدو عليها أي توتر عصبي وهي تتحدث بطريقتها البسيطة الرقيقة، وميورا سكوت بقيت كما هي: حلوة جذابة لا أثر عليها لاضطراب أو خوف. بل إنها كانت تتحدث في مودة مع إيريس وكأنهما صديقتان. بل رتشارد سكوت نفسه كان يبدو مبتهجاً سعيداً.

السيدة أنكرتون كانت هي الوحيدة التي تبدو عليها الهموم والقلق، وقد قالت للسيد ساترويت على انفراد في النهاية: لعلك ستتهمني بالحماقة والسخف، ولكني أشعر بخوف شديد رغماً عني، وقد أرسلت إلى صانع الزجاج دون أن أخبر زوجي بالأمر.

- صانع الزجاج؟!

- نعم، ليضع لوحاً جديداً من الزجاج في تلك النافذة.

إن زوجي نيد فخور بقصة الشبح الذي يسكن منزله، ولكني لا أشاركه هذا الفخر، ولذا أرسلت لاستدعاء صانع الزجاج ليضع لوحاً جديداً نظيفاً من الزجاج.

- ولكنك نسيت، أو لعلك لا تعلمين، أن شكل وجه الشبح يرتسم على اللوح بعد شهر أو شهرين.

- إنني أتحدى هذا الوجه، ولسوف أضع لوحاً جديداً من الزجاج كل شهر أو كل أسبوع إذا لزم الأمر. إن ثمن هذه الألواح لن يؤدي إلى إفلاسنا على كل حال.

فقال ساترويت لنفسه: والآن على شبح هذا الفارس أن يجد طريقة أخرى ليستطيع التغلب بها على قوة المال.

وشاء القدر في تلك الليلة أن يسمع ساترويت حديثاً آخر، فبينما كان صاعداً إلى غرفته رأى الميجور بورتر والسيدة ستافرتون جالسَين في ركن البهو الكبير بالقرب من الدرج يتبادلان الحديث، وكانت هي تقول بصوتها الذهبي: لم أكن أعرف أن سكوت وعروسه من بين المدعوين، لو كنت أعرف لما حضرت! ولكني أؤكد لك يا عزيزي أنني لن أهرب من هذا الموقف ما دمت قد حضرت.

ومضى ساترويت في طريقه بعيداً عن مرمى السمع وهو يقول لنفسه: ترى أهي صادقة في حديثها؟ أحقاً لم تكن تعرف أن رتشارد سكوت بين المدعوين؟

وفي الصباح، وفي ضوئه الصافي، أحس أنه بالغ في مخاوفه وأوهامه في الليلة السابقة. ولا شك أن كل ما خامره

كان ناتجاً من توتر أعصابه، أو لعل خمول الكبد عاوده مرة أخرى. نعم، إنه الكبد، إن عليه أن يمضي للاستشفاء في كارلسباد في أول فرصة.

وعند الغروب اقترح على الميجور بورتر مرة أخرى أن يمضيا في الغابة إلى المرتفع ليشاهدا إن كانت السيدة أنكرتون صادقة في قولها بأنها ستغير اللوح الزجاجي في النافذة بآخر جديد، ولكنه كان يريد أن يستمتع برياضة المشي في الواقع.

ومشى الاثنان ببطء في الغابة، وكان الميجور بورتر متحفظاً قليل الكلام كالمعتاد، أما ساترويت فقد قال على سبيل المحادثة: لا يسعني إلا أن أشعر بأننا كنا واهمين حين توقعنا حدوث شيء خطير أمس، فالمعروف أن الناس عادة يكتمون مشاعرهم الخاصة في مثل هذه الظروف ويحاولون أن يحسنوا السلوك مع الداعين والمدعوين.

فقال بورتر: لعلك تعني الناس المتحضرين.

- ماذا تقصد؟

- أقصد أن الناس الذين عاشوا فترات طويلة خارج العالم المتحضر يرتدّون أحياناً إلى العالم الهمجي الذي تعودوا عليه.

وبلغا المرتفع في الغابة، وهناك رأيا في زجاج النافذة وجه الشبح، وكان هذه المرة أقرب ما يكون إلى محيا إنسان حي! فقال ساترويت: يبدو أن السيدة أنكرتون لم تجرؤ على تغيير اللوح.

- لا شك أن زوجها عارضها بشدة في هذا الشأن. إنه من

الأشخاص الذين يفخرون بأشباح الأسر الأخرى، ولعله لم يشترِ المنزل إلا لأنه مشهور بأن «الفارس الرقيب» يقيم فيه.

ثم أردف وهو ينظر إلى العشب المحيط به: ألم يخطر ببالك يوماً أن المدنية خطرة جداً؟

فقال ساترويت بدهشة: خطرة جداً؟!

- نعم، لأنها خالية من صمامات الأمان النفسي.

وفي طريق العودة قال ساترويت للميجور: إنني لا أفهم ماذا تعني يا ميجور؟

فضحك بورتر وقال: أتظن أنني أخرف بما لا أعرف يا سيد ساترويت؟ حسناً، إن هناك أناساً يشعرون بقرب هبوب العواصف، وهناك -كما تعرف- أناس يحسون بقرب وقوع أمور خطيرة... وأنا أشعر أن أموراً خطيرة ستقع الآن. نعم يا سيد ساترويت، أمور خطيرة جداً ربما تحدث في أية لحظة حالاً.

وأمسك عن الكلام فجأة ووضع يده على ذراع السيد ساترويت، وفي اللحظات القليلة التالية فوجئ كل منهما بسماع طلقين ناريين، أعقبهما صيحة امرأة. وهتف بورتر قائلاً: يا إلهي! هلم نسرع.

وانطلق يعدو في الطريق إلى البيت والسيد ساترويت خلفه يلهث، وفي لحظات كانا قد وصلا إلى الممر المؤدي إلى الحديقة الخاصة، وفي الوقت نفسه كان رتشارد سكوت والسيد أنكرتون يقبلان من الجانب الآخر من المنزل نحو

الحديقة. وتوقف الرجال أمام بعضهم البعض على الجانبين الأيسر والأيمن للحديقة الخاصة.

فقال أنكرتون وهو يشير بإصبعه إلى الحديقة: لقد صدر الصوت من هنا.

وقال بورتر وهو يتقدمهم في المنعطف المؤدي إلى الحديقة: هلم لنرى.

ولما بلغ مع أصحابه آخر منحنى في الممر المؤدي إليها توقف متسمراً في مكانه، واختلس ساترويت النظر من وراء كتفه بينما أرسل سكوت صيحة عالية.

كان ثمة ثلاثة أشخاص في قلب الحديقة الخاصة: اثنان منهم، شاب وشابة، ملقيان بجوار المقعد الحجري، والثالثة، السيدة ستافرتون، واقفة بجانب السياج تنظر بعينين ملؤهما الفزع إلى شيء في يدها اليمنى.

وصاح الميجور بورتر: إيريس، إيريس... ما هذا الذي في يدك بحق السماء؟

فنظرت إليهم في دهشة وذهول، ثم قالت في شيء من عدم الاهتمام: مسدس. ثم أردفت قائلة بعد لحظة كأنها دهر: لقد تناولته من أرضية الحديقة.

وتقدم ساترويت إلى حيث كان أنكرتون وسكوت راكعين بجانب الجسدين، وكان سكوت يهتف قائلاً: أسرعوا بطلب طبيب، يجب أن يحضر حالاً.

ولكن يد الموت كانت أسبق من الطبيب، وهكذا ظل جسد الكابتن جيمس ألينسون مسجى على العشب بجوار جسد ميورا سكوت بلا حركة أو حياة. وكان رتشارد سكوت هو الذي تولى فحص الجسدين وتأكد من موتهما. وقد بدا واضحاً أنه يتمتع بأعصاب حديدية، وأنه بعد صيحة الألم والدهشة الأولى قد استرد زمام أعصابه بسرعة. وقال وهو يعيد وضع جسد امرأته على العشب برفق: أصابتها الرصاصة من الخلف، فقد نفذت من ظهرها إلى صدرها.

ولما فحص جيمس ألينسون وجد أن الجرح في صدره، وأن الرصاصة أصابته من أمام واستقرت في جسمه. وقال بورتر بحزم وهو يقترب منه: لا ينبغي أن نلمس شيئاً، فالواجب أن تجد الشرطة كل شيء كما حدث.

وبرقت عينا رتشارد سكوت بنيران الغضب وهو ينظر إلى السيدة ستافرتون ويقول: الشرطة!

ثم تقدم نحوها، ولكن بورتر اعترض سبيله وراح يتبادل معه النظرات الحادة برهة، ثم قال وهو يهز رأسه: لا يا رتشارد، إن المظاهر تدل على أنها هي ولكنك مخطئ في ظنونك.

- إذن لماذا... لماذا كان المسدس في يدها؟

وهنا قالت إيريس في لهجة الدفاع عن نفسها: لقد تناولته من أرضية الحديقة.

وقال أنكرتون: الشرطة، يجب استدعاء الشرطة فوراً، ويجب أن يبقى أحدنا هنا.

وتطوع ساترويت بأن يبقى في مكان الحادث حتى يأتي رجال الشرطة، وقبل المضيف هذا العرض ثم قال: يجب إبلاغ الأمر للسيدات. نعم، للّيدي سينيثيا ولزوجتي العزيزة.

وبقي ساترويت في الحديقة الخاصة ينظر إلى الجثتين ويقول لنفسه في أسف: مسكينة أنت أيتها الطفلة، لقد ذهبت في عمر الزهور!

وفيما هو يتأمل وجهها الصغير، ونصف الابتسامة التي لا تزال باقية على ثغرها، وشعرها الذهبي المشعَّث، وأذنها الدقيقة الرقيقة، بينما هو يتأمل ذلك كله لاحظ وجود بقعة من الدم على شحمة الأذن. وأحس في أعماق نفسه بالرغبة في الاستنتاج والاستدلال كما يفعل رجال المباحث، ومن ثم استنتج أن هذه البقعة ناشئة من قرط كان في تلك الأذن. نعم، هذا صحيح، لأنه رأى في الأذن الأخرى قرطاً صغيراً عبارة عن حبة لؤلؤ في مشبك ذهبي.

* * *

قال مفتش الشرطة ونكفليد بعد أن قابل الجميع ثم جلس في البهو الكبير: والآن يا ميجور بورتر، أفهم أنك كنت عائداً من الغابة مع السيد ساترويت عندما سمعتما طلقين ناريين ثم صيحة امرأة، فاندفعتما تجريان في الممر الملتوي المؤدي إلى الحديقة الخاصة من الناحية اليسرى للمنزل. أليس كذلك؟

- تماماً.

– ومعنى هذا أنه لو أن مطلق النار أراد الهرب من الحديقة الخاصة لالتقى بك وبالسيد ساترويت، أو بالسيد أنكرتون والسيد سكوت اللذين كانا مسرعَين من الجهة اليمنى، لأنه لا يوجد منفذ آخر للحديقة الخاصة؟

– نعم يا سيدي المفتش، هذا صحيح.

– حسناً جداً، وفي الوقت الذي كنتما فيه في الغابة كانت السيدة أنكرتون وزوجها والليدي سينيثيا جالسين في الممر الرئيسي المؤدي إلى البيت، وكان السيد سكوت جالساً في غرفة البلياردو المؤدية إلى ذلك الممر. وفي الساعة السادسة وعشر دقائق خرجت السيدة ستافرتون من المنزل وتبادلت حديثاً قصيراً مع الجالسين في الممر، ثم انعطفت عند ركن المنزل في طريقها إلى الحديقة الخاصة. وبعد دقيقتين دوت الطلقات النارية فاندفع السيد سكوت والسيد أنكرتون في طريقهما إلى الحديقة الخاصة من الناحية اليمنى للمنزل، وفي نفس الوقت كنت أنت يا ميجور بورتر مع السيد ساترويت تندفعان إليها من الجهة الأخرى اليسرى. وهنا رأيتم جميعاً السيدة ستافرتون واقفة والمسدس الذي انطلقت منه الرصاصتان في يدها اليمنى. وكما أفهم ما حدث، أقول إنها أطلقت أولاً رصاصة على السيدة سكوت في ظهرها وهي جالسة على المقعد الحجري، فلما وثب الكابتن ألينسون مندفعاً إليها أطلقت الرصاصة الثانية في صدره. وقد فهمت أنه كان ثمة علاقة عاطفية سابقة بينها وبين السيد سكوت؟

قال بورتر بصوت أجش كله التحدي: هذه أكذوبة لعينة.

وهز المفتش كتفيه بينما قال ساترويت: وما هي أقوال السيدة ستافرتون؟

– قالت إنها ذهبت إلى «الحديقة الخاصة» لتنفرد بنفسها برهة، وفيما هي تمر بآخر منعطف قبل مدخل الحديقة سمعت الطلقين الناريين، فأسرعت إلى مكان الصوت ورأت المسدس على الأرض فتناولته، ولم تر في الوقت نفسه أحداً داخلاً الحديقة أو خارجاً منها، وإنما رأت فقط المصابين ملقيين بجوار المقعد الحجري. هذه هي أقوالها التي أصرت عليها، رغم أنني حذرتها من الإدلاء بأي شيء إلا بحضور محام لها.

وهنا قال الميجور بحزم وإصرار: إذا كانت هذه هي أقوالها فهي صادقة، فأنا أعرف إيريس ستافرتون.

– حسناً يا سيدي، يوجد متسع من الوقت لإثبات براءتها فيما بعد، أما الآن فإن عليّ واجباً يجب أن أؤديه.

وبحركة سريعة التفت الميجور بورتر إلى السيد ساترويت ثم قال له: أنت؟ ألا تستطيع أن تساعدها؟ ألا يمكنك أن تقوم بشيء لإثبات براءتها؟

وأحس ساترويت بالزهو يملأ نفسه. ولا غرو، فهذا هو رجل معروف في الوسط الاجتماعي يلجأ إليه ويلتمس منه المساعدة. وقبل أن يقول شيئاً أقبل رئيس الخدم، ومبسون، يحمل بطاقة قدمها إلى سيده السيد أنكرتون الذي كان متهالكاً في مقعده ثم قال: حاولت أن أعتذر للسيد بأنك مشغول الآن، لكنه أصر على مقابلتك قائلاً إن بينك وبينه موعداً.

فنظر أنكرتون إلى البطاقة ثم قال: السيد هارلي كوين؟ آه، نعم، لقد حددت له موعداً لمقابلته بشأن إحدى اللوحات الفنية، لكن الظروف الآن...

وهنا هتف السيد ساترويت قائلاً: أتقول هارلي كوين؟ ما أعجب هذا! لقد طلبت المساعدة مني يا ميجور وأعتقد أن في مقدوري تحقيق طلبك. إن السيد كوين صديق لي وهو شخصية ممتازة في مثل هذه الظروف.

وقال المفتش في لهجة لا تخلو من تهكم: أظن أن أحداً قد كشف الغموض عن الجرائم المعقدة؟

- لا، ليس أحد الهواة، وإنما هو رجل له قدرة عجيبة على أن يجعلكم ترون بأعينكم ما كان يجب أن تروه وأن تسمعوا بآذانكم ما كان ينبغي أن تسمعوه، ولن يضيرنا شيء إذا نحن عرضنا عليه الخطوط الرئيسية للمأساة ثم نعرف ماذا سيقول لنا.

ونظر السيد أنكرتون إلى المفتش الذي رفع عينيه إلى السقف ساخراً، ثم أومأ برأسه إلى رئيس الخدم تومبسون. فغادر هذا البهو ثم عاد ومعه السيد كوين بقامته الطويلة وجسمه النحيل.

قال السيد كوين بعد أن صافح السيد أنكرتون وحيا برأسه الجميع: إنني آسف لحضوري في هذا الوقت يا سيد أنكرتون، وأظن أنه ينبغي أن نهمل الآن حديثنا البسيط عن اللوحة الزيتية. آه، هو ذا صديقي السيد ساترويت. أعتقد أنك لا زلت مشغوفاً بما يجري على مسرح الحياة كعادتك؟

فقال ساترويت وهو ينظر إلى السيد كوين الذي كان يبتسم: سيد كوين، إننا الآن في خضم إحدى مسرحيات الحياة، وإنني وصديقي الميجور نريد أن نعرف رأيك في أحداثها.

وبعد أن ذكر له تفاصيل ما حدث هز السيد كوين رأسه وقال: هذه مأساة مؤلمة، وأعتقد أن انتفاء الباعث على القتل يجعلها شديدة الغموض.

فحملق أنكرتون في وجهه قائلاً: أنت لا تدرك حقيقة الموقف، فقد سمعت السيدة ستافرتون وهي تهدد السيد سكوت. لقد كانت شديدة الغيرة من زوجته، والغيرة...

- أتفق معك. إن الغيرة عاطفة مدمرة، ولكنك أخطأت فهم كلماتي. لقد كنت أتحدث عن مقتل الكابتن جيمس ألينسون.

وهنا هتف الميجور قائلاً: إنك على حق، إن مقتل الكابتن يثير الشك في المأساة كلها، فلو كانت السيدة ستافرتون تنوي قتل السيدة سكوت لاستدرجتها بمفردها إلى مكان آخر. نعم، إننا نسير في الطريق الخطأ. أعتقد أن هناك وجهاً آخر للموضوع. وأنا أعترف أن هؤلاء الأشخاص الثلاثة ذهبوا إلى الحديقة الخاصة قبل وقوع الحادث: جيمس ألينسون، والسيدة سكوت، ثم السيدة ستافرتون. ورأيي هو أن جيمس ألينسون قد أطلق النار على السيدة سكوت ثم على نفسه، ثم وقع المسدس من يده حيث تناولته السيدة ستافرتون عند دخولها عقب الحادث مباشرة.

فهز المفتش رأسه وقال: هذا التعليل غير معقول، فلو أن الكابتن ألينسون قتل نفسه لظهرت آثار البارود على ملابسه.

- لعله أطلق النار على نفسه من مسافة ذراع.

- ولماذا يفعل هذا؟ لا معنى لذلك. وأيضاً فما هو السبب؟

- ربما فقد صوابه فجأة؟

وصمت بورتر وهو يشعر أن حجته قد ازدادت ضعفاً إلى هذا الحد، لكنه لم يلبث أن قال للسيد كوين في تحدٍ: وأنت ما رأيك يا سيد كوين؟

- أنا لست ساحراً، بل ولست باحثاً جنائياً، ولكن يمكنني أن أقول إنني أؤمن جداً بقيمة الانطباعات النفسية. ففي اللحظات العصبية تنقش في الذهن لحظة معينة أو صورة معينة بعد أن تتلاشى جميع الصور الأخرى. ويبدو لي أن السيد ساترويت هو المراقب الوحيد المحايد في هذه المأساة، فهل يمكن أن تعود بذاكرتك -يا سيد ساترويت- وتخبرنا عن أشد هذه اللحظات إثارة لنفسك؟ هل كانت اللحظة التي سمعت فيها الطلقات النارية، أم التي وقفت فيها تنظر إلى الجسدين الهامدين، أم التي رأيت فيها السيدة ستافرتون واقفة والمسدس في يدها؟

ركز ساترويت عينيه في وجه السيد كوين كأنه تلميذ أمام أستاذ، ثم قال ببطء: لا، إن اللحظة التي انطبعت في نفسي هي عندما وقفت أنظر إلى السيدة سكوت بوجهها الصغير وشعرها الذهبي المشعث وبقعة الدم على شحمة أذنها.

وما كاد يقول هذا حتى أدرك أنه ألقى بما يشبه القنبلة، وإذا بالسيد أنكرتون يتمتم ببطء: دماء على أذنها؟ نعم، إنني أذكر هذا، وأعتقد أن قرطها لا بد قد انتُزع من أذنها عندما سقطت على الأرض.

فقال بورتر: لقد كانت راقدة على جنبها الأيسر، فلا شك أن الدم كان على أذنها اليسرى.

- لا، بل كان على شحمة أذنها اليمنى.

وتنحنح المفتش وقال وهو يمد يده بشيء بسيط: لقد عثرت على هذا في العشب.

صاح بورتر قائلاً: يا إلهي، إنه المشبك الذهبي للقرط! ولكن لا يمكن أن يتحطم القرط هكذا بمجرد سقوطها على الأرض. الواضح أنه قد انتُزع من شحمة أذنها عنوة. نعم، لا شك في هذا، ولا شك أن الرصاصة هي التي حطمت القرط وجرحت الأذن.

وهنا قال المفتش: لم تنطلق غير رصاصتين فقط، ولا يعقل أن تجرح رصاصة الأذن ثم ترتد لتنفذ من ظهرها. فإذا افترضنا أن إحدى الرصاصتين جرحت الأذن وحطمت القرط فإنها لا يمكن أن تقتل الكابتن ألينسون في الوقت ذاته ما لم يكن واقفاً أمامها مباشرة. لقد وُجد قريباً منها. لا، لا، هذا لا يمكن إلا إذا كانت...

وصمت المفتش فجأة، فقال السيد كوين: إلا إذا كانت بين ذراعيه. حسناً، لِمَ لا؟

وتبادل الجميع نظرات الدهشة، ذلك أن هذا الاحتمال لم يكن يخطر ببال أحدهم. ثم قال السيد أنكرتون: لكن الكابتن أليسون لا يكاد يعرف السيدة سكوت.

وقال السيد ساترويت لنفسه: من يدري؟ لعلهما كانا يعرفان بعضهما البعض دون أن نعلم، فقد قالت الليدي سينيثيا إن الكابتن أليسون كان لطيفاً معها عند زيارتها لمصر في الشتاء الماضي.

والتفت ساترويت إلى بورتر وقال له: لقد أخبرتني أن السيد سكوت تعرّف بزوجته في مصر، في القاهرة، في الشتاء الماضي. فلعل أليسون قد تعرّف عليها أيضاً في ذلك الحين؟

فقال أنكرتون: ولكن كان يبدو عليهما هنا أنهما لا يعرفان بعضهما البعض. لعلهما كانا يتظاهران بهذا لغرض معين.

قال السيد كوين للسيد أنكرتون: أترى ماذا أوضح لنا ساترويت بملاحظته الدقيقة؟ والآن جاء دورك يا سيد أنكرتون.

- ماذا تعني؟

- أعني أنني لاحظت أنك كنت مستغرقاً في أفكارك عندما دخلت هذا البهو، ولا بأس أن تخبرنا فيم كنت تفكر، حتى لو لم يكن له علاقة بالمأساة.

فتردد أنكرتون برهة ثم قال: الواقع أنني كنت أفكر في موضوع خرافي لا علاقة له بالحادثة، فقد أخبرتني زوجتي أنها

وضعت لوحاً زجاجياً جديداً في نافذة الشبح، وإني لأشعر أن تغيير لوح الزجاج هو الذي جلب هذا النحس.

ولم يعلم أنكرتون لماذا حملق في وجهه كل من الميجور بورتر والسيد ساترويت الذي قال: أتقول إن زوجتك قد وضعت لوحاً زجاجياً جديداً في نافذة الشبح فعلاً؟

- نعم، في صباح هذا اليوم.

وهتف الميجور بورتر قائلاً: يا إلهي! لقد بدأت أفهم الآن. إن هذه الغرفة مكسوة الجدران بألواح الخشب وليس بالورق الملون.

- نعم، لكن ما علاقة هذا بالموضوع؟

ولكن بورتر اندفع خارجاً من البهو والجميع يتبعونه، ثم صعد فوراً إلى غرفة الشبح التي كان يقيم فيها سكوت وزوجته. كانت غرفة جميلة جدرانها مكسوة بألواح مصقولة في لون الكريم. وتحسس الميجور الألواح بيده وهو يقول إنه واثق من وجود مفتاح لباب سري، وفجأة سمع الجميع طقطقة خفيفة، وإذا جزء من الألواح يتحرك ويكشف عن الألواح الحائلة اللون في نافذة الشبح، وكان بينها لوح جديد نظيف. وانحنى بورتر فجأة ثم التقط من على الأرض ريشة نعام، ثم نظر إلى السيد كوين، وبادله هذا النظر وهو يومئ إليه برأسه.

وعبر بورتر الغرفة إلى خزانة الملابس حيث وجد فيها عدداً من قبعات السيدة سكوت، فتناول منها قبعة عريضة الحافة مزينة بالريش. وبدأ السيد كوين يتحدث بهدوء: لنفرض

أن هناك رجلاً شديد الغيرة بطبعه، رجلاً سبق أن أقام في هذا البيت أياماً أو أسابيع وعرف سر الباب السري الذي يخفي نافذة الشبح من داخل الغرفة. ولنفرض أنه أراد أن يتسلى ففتح هذا الباب ونظر من وراء زجاج نافذة الشبح إلى الحديقة الخاصة فرأى زوجته بين ذراعي شاب من الضيوف، فجن جنونه من فرط الغيرة، ولكن ماذا يفعل؟ لقد ومضت بباله فكرة. إنه يذهب إلى خزانة الملابس ويأخذ منها قبعة ذات حافة عريضة مزينة بالريش، وكان شفق المساء يتجمع في تلك اللحظة، وقد تذكّر الأسطورة التي تدور حول شبح النافذة، ومن ثم اطمأن إلى أن أي شخص يراه من الخارج سيحسبه شبح «الفارس الرقيب». وهكذا راح يراقب الزوجة والشاب، حتى إذا رآهما متعانقين أطلق مسدسه عليهما وقتلهما برصاصة واحدة نفذت من الزوجة واستقرت في صدر الشاب، ولكنه أطلق رصاصة أخرى على قرط الزوجة... والمعروف أنه بارع في إطلاق النار وإصابة الهدف لأنه صياد مشهور. ثم ألقى بالمسدس من النافذة إلى الحديقة الخاصة واندفع عائداً إلى قاعة البلياردو، ومنها إلى الحديقة مع السيد أنكرتون.

وهنا قال بورتر في دهشة: ولكنه تركها، ترك السيدة ستافرتون معرضة للاتهام. لقد وقف ساكناً وتركها تتحمل تهمة ارتكاب جريمة هي بريئة منها، فلماذا؟

فقال السيد كوين: أعتقد أنني أعرف لماذا؟ أعرف بالاستدلال والاستنتاج، فليس لي مفر من هذا. أعتقد أن رتشارد سكوت كان يحب إيريس ستافرتون إلى حد الجنون، وقد بلغ من قوة حبه لها أن عاطفته اشتعلت حين رآها بعد

فراق سنوات. لقد اشتعلت عواطفه بالغيرة المجنونة هذه المرة، ذلك أن إيريس ظنت يوماً أنها أحبته ولكنها بعد أن عادت من رحلتها في قلب أفريقيا أيقنت أنها أحبت شخصاً آخر، الشخص الأفضل والأكثر اتزاناً.

قال بورتر في ذهول: الشخص الأفضل؟ هل تعني...

فابتسم السيد كوين وقال: أعنيك أنت.

ثم صمت برهة قبل أن يردف قائلاً: لو كنت في موضعك لذهبت إليها الآن وأخذتها بين ذراعي.

فرد بورتر بحزم: سوف أذهب حالاً.

ثم استدار وانطلق مسرعاً إلى إيريس.

* * *

علامة في السماء

أخذ القاضي يلخص القضية للمحلفين بعد الانتهاء من نظرها بقوله: "والآن أيها السادة، أوشكت أن أفرغ مما أريد أن أقوله لكم، فأمامكم الأدلة التي يمكنكم أن تعرفوا بها ما إذا كان هذا المتهم هو الذي قتل فيفيان بارنابي. فقد عرفتم من أقوال الخدم الوقت الذي أطلقت فيه الرصاصة، وقد أجمعوا الرأي على هذا الوقت. وعرفتم أمر الخطاب الذي أرسلته فيفيان بارنابي إلى المتهم في صباح اليوم الذي قتلت فيه، وهو يوم الجمعة الثالث عشر من شهر سبتمبر، وقد اعترف المتهم بهذا الخطاب. وعرفتم كيف أنكر المتهم ذهابه إلى منزل المجني عليها في ديرينج هيل في ذلك اليوم، ولكنه لم يلبث أن اضطر للاعتراف بهذه الزيارة أمام الأدلة التي قدمتها الشرطة.

ولا تقوم هذه القضية على أدلة مادية ملموسة، ومن ثم عليكم أن تصدروا حكمكم على أساس الدافع على القتل والوسائل والفرصة التي أغرت بارتكاب الجريمة. وقد أقام محامي المتهم دفاعه على أساس أن شخصاً غريباً قد دخل غرفة الموسيقى بعد خروج المتهم منها وأطلق الرصاص على فيفيان بارنابي من نفس البندقية التي قال المتهم أنه -للمصادفة-

نسيها وراءه. وقد سمعتم السبب الذي جعل المتهم يستغرق ساعة في العودة إلى منزله، فإذا أبيتم أن تصدقوا كلامه، واقتنعتم اقتناعاً لا يقبل أدنى شك بأن المتهم قد أطلق النار من بندقيته عن عمد وسابق إصرار من مسافة قصيرة على رأس فيفيان بارنابي قاصداً قتلها (وذلك في يوم الجمعة الثالث عشر من شهر سبتمبر) فإن عليكم أيها السادة أن تصدروا حكمكم بالإدانة. أما إذا خامرتكم شكوك لها ما يبررها، فإن واجبكم يقتضي إطلاق سراح المتهم. وأنا الآن أطلب منكم أن تجتمعوا في غرفتكم، وأن تتفقوا على الحكم، وأن تخبروني به.

وغاب المحلفون في غرفهم ساعة، ثم عادوا وأصدروا الحكم الذي كان كل من في القاعة يتنبأ به وهو: «إدانة المتهم».

وانصرف السيد ساترويت من المحكمة على مضض وهو يفكر في هذا الحكم بوجه مقطب. لو أنها كانت مجرد قضية جريمة قتل من النوع الذي لا يثير اهتمامه عادة لما فكر في الذهاب إلى المحكمة، ولكن هذه القضية التي سميت «قضية وايلد» كانت تختلف عن مثيلاتها، فالمعروف أن الشاب مارتن وايلد من النوع الذي يمكن أن يقال عنه أنه مهذب أو جنتلمان، وكانت الضحية أو المجني عليها شابة حسناء، زوجة السير جورج بارنابي، وهي معروفة في الوسط الراقي.

كان يفكر في هذا كله وهو ذاهب نحو شارع هولبورن ومنه إلى شبكة من الشوارع المؤدية إلى حي سوهو. وفي أحد شوارع هذا الحي دخل مطعماً لا يتردد عليه إلا الطبقة الثرية

بسبب ارتفاع أسعار مأكولاته، وكان جو المطعم من الداخل هادئاً ساكناً والضوء خافتاً، كأنه محارب في معبد، أما اسم هذا المطعم فهو آرليكشينو. ومضى ساترويت، وهو لا يزال يفكر، في طريقه داخل المطعم إلى المائدة التي تعود الجلوس إليها في أحد الأركان، ولكنه فوجئ بشخص آخر جالس إليها.

وأراد أن يتراجع، لكن هذا الشخص استدار إليه فجأة، وإذا بساترويت يقول: يا إلهي، إنه السيد كوين!

وازداد انفعال السيد ساترويت وهو يرى أمامه تلك الشخصية الخفية العجيبة، التي تنقله عند الأحداث الهامة من دور المتفرج على مسرح الحياة إلى دور الممثل فوق ذلك المسرح نفسه. فجلس مبتهجاً إلى نفس المائدة. وبعد أن حضّر الخدم طلباتهما قال: لقد أتيت حالاً من محكمة أولد بيلي. إنها قضية مؤلمة، لقد قرر المحلفون إدانته. نعم، بعد نصف ساعة من تبادل الرأي وبناء على الأدلة المقدمة إليهم، أليس كذلك؟ ومع ذلك...

ولما تردد ساترويت برهة في إتمام كلامه أكمله السيد كوين قائلاً: ومع ذلك، فأنت في جانب المتهم. أليس هذا ما أردت أن تقوله؟

- أظن ذلك، فإن مارتن وايلد شاب لطيف وسيم، ولا يكاد يخطر ببال أحد أنه يرتكب جريمة كتلك. ومع ذلك فكم من شبان ظرفاء ارتكبوا من الجرائم ما يملأ القلوب بالفزع.ولكن الأدلة...

- آه، أنا لم أحضر المحاكمة يا سيد ساترويت، كما أنني

لا أعرف عن الحياة الخاصة للمجني عليها ولزوجها وللمتهم، ولكني أعرف أنك -يا سيد ساترويت- تعرف الشيء الكثير عن تلك الحياة، فهلا أخبرتني بما تعرف؟

ومرة أخرى أحس ساترويت بالزهو وهو يجد نفسه يؤدي دوراً رئيسياً في إحدى مسرحيات الحياة، ومن ثم راح يسرد معلوماته عن فيفيان بارنابي، الشابة الحسناء زوجة السير جورج بارنابي، وعن علاقتها بالشاب مارتن وايلد، وعن خطيبته سيلفيا ديل المقيمة في قرية قريبة تسمى ديرنج فيل. وقد بدأ حديثه عن الحياة في قصر ديرنج هيل الذي يمتلكه السير بارنابي فقال: إن الرجل صاحب القصر كان في خريف العمر، وكان بخيلاً موفور الثراء، شديد الفخر بثروته كثير الاهتمام بالتفاهات. فهو -مثلاً- قد تعود دائماً أن يدفع أجور الخدم في صباح يوم الثلاثاء من كل أسبوع، ويملأ ساعات القصر بنفسه ويضبطها بعد ظهر يوم الجمعة من كل أسبوع، ولا ينسى أن يغلق باب القصر الخارجي بنفسه كل ليلة... إنه رجل حريص دقيق كثير الاهتمام بالصغائر.

وانتقل ساترويت من الحديث عن السير جورج بارنابي إلى الحديث عن زوجته الليدي بارنابي، وهنا كان حديثه أكثر رقة. قال إنه قد رآها مرة واحدة، ولكنه شعر في هذه المرة بأنها كانت -على جمالها الفاتن- حزينة السمات، غاضبة النفس، ساخطة على حظها في الحياة.

- هل كانت تكره زوجها؟

- نعم، أشد كراهية. لقد تزوجته قبل أن تعرف شيئاً عن

مبلغ بخله وتقتيره وحقارة نفسه. وقد ندمت بعد ذلك، ولكنها لم تدر ماذا تفعل، فقد كانت فقيرة لا تملك شيئاً إلا ما تظفر به من زوجها. وكان هو حريصاً جداً في منحها ما تريد من مال، وكانت هي شديدة الطمع مشغولة بترف الحياة.

وتابع ساترويت يقول: ولم أر مارتن وايلد قبل المحاكمة، ولكني سمعت عنه. كان يمتلك مزرعة صغيرة لا تبعد عن قصر ديرنج هيل غير ميل واحد، والتقت به ذات يوم... أعني الليدي بارنابي، فرأت فيه وسيلة للخلاص من زوجها، فتعلقت به بعنف كما يتعلق الغريق بطوق النجاة. حسناً، لم يكن ثمة غير نهاية واحدة لعلاقة كهذه، ونحن نعرف الآن هذه النهاية. لقد كان هو يحتفظ بخطاباتها إليه بينما كانت هي تمزق خطاباته إليها، ومن نصوص خطاباتها فهمنا أن حرارة حبه لها بدأت تهدأ وتبرد في الأسابيع الأخيرة، وقد اعترف هو بذلك قائلاً إنه كان خاطباً لفتاة جميلة لطيفة في قرية ديرنج فيل المجاورة. وقد شاهدتها في المحكمة، إنها شقراء هادئة رزينة مخلصة. نعم، كان الإخلاص لمارتن وايلد هو أهم الصفات التي لفتت الأنظار إليها.

وتوقف ساترويت برهة، ونظر إلى السيد كوين كأنما يلتمس منه التشجيع ليستمر في حديثه، فلما رآه يبتسم تابع كلامه: لعلك قرأت رسالة الليدي الأخيرة إلى وايلد بعد أن نشرتها الصحف. إنها الرسالة المكتوبة في صباح يوم الجمعة، الثالث عشر من شهر سبتمبر، وكانت مفعمة بألوان من اللوم والعتاب والتهديدات الخفية، وقد اختتمت بقولها: "إنني أرجوك وأتضرع إليك أن تأتي الليلة في نحو الساعة السادسة

مساء، وسوف أترك الباب الجانبي مفتوحاً لك حتى لا يعرف أحد أنك حضرت إليّ وسأكون في غرفة الموسيقى". وقد أرسلت هذا الخطاب بواسطة أحد الخدم.

وتوقف ساترويت برهة قبل أن يستطرد قائلاً: وعندما قُبض عليه أنكر مارتن وايلد في أول الأمر أنه زارها في الموعد المحدد، ولكنه اضطر للاعتراف أمام الأدلة التي عثرت عليها الشرطة. فقد قال إنه أخذ بندقيته وخرج للرياضة والصيد في الغابات المجاورة، ولكن رجال الشرطة قدموا إليه صور وبصمات أصابعه على خشب الباب الجانبي وعلى أحد كأسي الشراب الموجودين فوق المائدة بغرفة الموسيقى. وهكذا اعترف أنه زار الليدي بارنابي، وكانت زيارة عاصفة تبادلا فيه اللوم والاتهامات بالخيانة والغدر، وخيراً استطاع أن يهدئ ثائرتها. وقد أقسم أنه نسي بندقيته مرتكزة على جدار بالقرب من الباب الخارجي وأنه ترك الليدي على قيد الحياة، وكانت الساعة قد تجاوزت السادسة والربع بدقيقة أو دقيقتين، ومضى إلى بيته فوراً... هكذا قال، ولكن الأدلة أثبتت أنه وصل إلى بيته في السابعة إلا ربعاً. وكما قلت الآن، لم تكن المسافة تزيد عن ميل، أي تحتاج إلى نصف ساعة لقطعها. أما عن قوله أنه نسي بندقيته فقد أبى أحد أن يصدقه.

- ومع ذلك؟

- ومع ذلك فليس في هذا أية غرابة من وجهة نظري، فإن الإنسان يكون عادة في حالة اضطراب نفسي شديد بعد مقابلة عاصفة كالتي حدثت بين الليدي بارنابي ومارتن وايلد، فأية

غرابة في أن ينسى أي شيء وهو منصرف بعد مقابلة كهذه في الطريق إلى بيته؟

وصمت ساترويت برهة قبل أن يردف قائلاً: ولكن المهم ليس هذا، لأن المرحلة التالية من الحادث واضحة. فقد سُمع صوت الطلقات النارية في تمام الساعة السادسة والثلث، سمعه الخدم جميعاً: الطاهية ومساعدتها ورئيس الخدم وخادمة القصر والخادمة الخاصة لليدي بارنابي... وقد هرعوا جميعاً إلى غرفة الموسيقى حيث رأوها مكومة على مقعدها جثة هامدة، لأن الطلقات النارية أطلقت عليها من قرب ومن خلف رأسها بحيث نفذت من جمجمتها.

ومرة أخرى توقف ساترويت عن الكلام. فقال السيد كوين: لقد أدلى الخدم بشهاداتهم طبعاً؟

- نعم، وكانت شهادة كل منهم مطابقة تماماً لشهادة الباقين.

- ألم يشذ أحد منهم أبداً؟

- أعتقد أن خادمة البيت أدلت بشهادتها في التحقيقات الأولية ثم سافرت إلى كندا فلم تحضر المحاكمة.

- آه فهمت!

فنظر ساترويت بسرعة إلى وجه كوين وقد أحس أن للهجته -وهو ينطق بالكلمة الأخيرة- معنى خاصاً، فقال متحدياً: ولماذا لا تسافر؟

وبعد أن هز كتفيه، قال السيد كوين: ولماذا سافرت؟

وهنا عاد ساترويت إلى حديثه عن القضية قائلاً: ولم يكن

ثمة شك فيمن أطلق الرصاص، ولكن الخدم لم يعرفوا كيف يتصرفون بسرعة. لم يكن في البيت من يتولى إصدار الأمر، وهكذا مرت لحظات قبل أن يفكروا في طلب رجال الشرطة تليفونياً، لكنهم وجدوا التليفون معطلاً عن العمل.

- أوه! كان التليفون معطلاً؟

- نعم، ولا يدري أحد لماذا. لأن الوفاة كانت سريعة فلم يكن ثمة أمل في إنقاذ المجني عليها باستدعاء الطبيب، فلماذا عطل الجاني التليفون؟ لقد كان العطل مقصوداً.

لم يقل السيد كوين شيئاً، فتابع ساترويت يقول: ولم يكن هناك أحد أبداً لا يعتقد تماماً أن مارتن وايلد هو الجاني، فباعترافه أثبت أنه غادر القصر بعد دقيقة أو اثنتين من السادسة والربع مساء، وقد سمع الخدم الطلقات النارية في الساعة السادسة والثلث تماماً. ومعنى هذا أنه كان قريباً من البيت في الدقائق الخمس التي سبقت سماع الخدم للطلقات النارية. فمَن الذي أطلق النار غيره؟ لقد ثبت أن السير جورج بارنابي كان يلعب البريدج في منزل صديق يبعد عن منزله ببضعة منازل، وقد انصرف من منزل صديقه في تمام السادسة والنصف حيث التقى به أحد خدمه عند بوابة القصر وأخبره بالنبأ، وليس ثمة أي شك في هذا. أما هنري تومسون، سكرتير السير جورج، فقد كان في لندن في ذلك اليوم، وكان مشتركاً في اجتماع خاص بشأن بعض الأعمال في الوقت الذي أطلقت فيه الرصاصات على الليدي بارنابي. وهناك سيلفيا ديل، خطيبة مارتن وايلد، وقد ثبت أنه لا شأن لها بالجريمة لأنها كانت عندئذٍ في محطة

قريبة من ديرنج فيل تودع صديقة لها استقلت قطار السادسة وثمان وعشرين دقيقة الذاهب إلى لندن. ولم يبق بذلك غير الخدم... ولكن ما هي البواعث التي تدفع أحدهم إلى قتل الليدي بارنابي؟ ومع هذا فقد هرعوا جميعاً، دون استثناء، إلى غرفة المجني عليها عندما سمعوا الطلقات النارية. وعلى هذا لم يبق هناك أدنى شك في أن مارتن وايلد هو الجاني.

ورغم هذا، كان السيد ساترويت يدل على أنه غير مقتنع بما يقول. ومرت فترة من الصمت أخذ الرجلان خلالها يتناولان الطعام وكل منهما مستغرق في تفكيره. وفجأة وضع ساترويت الشوكة والسكين من يديه وقال: كيف يكون الحال إذا ثبت أن الشاب بريء بعد تنفيذ حكم الإعدام فيه؟

هز السيد كوين كتفيه، فقال ساترويت: ولكن لماذا، كما قلت، رحلت خادمة القصر إلى كندا؟

- يمكنك أن تعرف لماذا يا سيد ساترويت، بل يمكنك أن تعرف أي مكان في كندا أقامت فيه.

- أعتقد ذلك، فلا شك أن رئيس خدم القصر يعرف، أو سكرتير السير جورج. لكن ما شأني في ذلك كله؟

وبعد برهة صمت قال السيد كوين في تردد: إن ذلك الشاب سيموت على حبل المشنقة بعد ثلاثة أسابيع على الأكثر.

- أوه، أعرف ماذا تعني. إنك تعني أنني إن كنت أرتاب في أنه لم يقتل المجني عليها فمن واجبي أن أسعى بكل جهد ممكن لإثبات براءته، ولكن إذا عرفت مكان الخادمة في كندا

فإن ذاك يقتضي ذهابي إليها.

- ولماذا لا تسافر؟ إنك رجل موفور الثراء وخال تماماً من أعباء الأسرة ومسؤولياتها، وكندا بلاد جميلة جديرة بالسفر إليها لمدة أسبوع أو أكثر. ثم لا تنسَ أنك بهذه السفرة سوف تنتقل من مقاعد المتفرجين على المأساة إلى قلب المأساة نفسها، فمن يدري؟ فلعلك تستطيع أن تجد في أقوال تلك الخادمة ما يثبت براءة ذلك الشاب المسكين.

وفكر ساترويت برهة ثم قال: وإذا عدت من كندا فأين يمكن أن أجدك؟

- ليس لي مقر ثابت في الوقت الحاضر، ولكني أتردد كثيراً على هذا المطعم. فإذا كنت تتردد عليه مثلي فلا شك في أننا سنلتقي حتماً.

اشتد انفعال السيد ساترويت، وسرعان ما هرع إلى مكتب شركة كوك حيث استفسر عن مواعيد البواخر التي ستبحر إلى كندا، ثم اتصل تليفونياً بقصر السير جورج بارنابي، حيث رد عليه رئيس الخدم فقال له: اسمي ساترويت، وأنا أتحدث من مكتب توكيلات قضائية، وأحب أن أعرف بعض التفصيلات عن الخادمة الشابة التي كانت تعمل في القصر إلى عهد قريب.

- أتعني لويزا؟ لويزا بولارد؟

- نعم، نعم.

- أخشى أن أعجز عن تقديم أية خدمة لك في هذا الشأن

يا سيدي، فقد رحلت إلى كندا منذ ثلاثة أشهر.

- هل يمكنك أن تذكر لي عنوانها هناك؟

- لا أظن، كل ما أعرفه أنها تقيم في منطقة جبلية ذات اسم اسكتلندي. آه، اسم المنطقة هو «بانف». وهي، أي لويزا، لم تكتب إلينا أو إلى أحد رسالة، كما أنها لم تخبرنا بعنوانها الكامل.

وضع ساترويت السماعة بعد أن شكره، وأحس أن روح المغامرة تزداد عنفاً في أعماق نفسه، ومن ثم قرر الذهاب إلى منطقة بانف هذه. فإذا كانت لويزا هناك فلن يدخر وسعاً في البحث عنها والوصول إليها.

* * *

ولشد ما كانت دهشته حين وجد نفسه يستمتع بالرحلة البحرية إلى كندا.

وفي منطقة بانف عثر بسهولة على محل إقامة لويزا بولارد، وإذا هو يقف أمامها بعد يوم واحد من وصوله إلى المنطقة. كانت امرأة في نحو الخامسة والثلاثين من عمرها، طويلة القامة قوية الجسم، تنم عيناها على البراءة والوفاء وعن شيء من الغباء. وقد صدقت بسرعة ما قاله عن رغبته في جمع بعض المعلومات الخاصة بمأساة ديرنج هيل، وقالت في هذا الشأن: قرأت في الصحف أن الحكم صدر بإدانته، يا للمسكين! إنه لأمر محزن حقاً.

ورغم أنها كانت واثقة من إدانته أيضاً إلا أنها قالت: كل

إنسان معرض لارتكاب جريمة كهذه، وأنا لا أحب التحدث عن الموتى بسوء ولكنني أعتقد أن الليدي بارنابي هي التي دفعته إلى ارتكاب مثل هذه الجريمة. حسناً، فقد نال كل منهما عقابه. هذه شريعة السماء، كنت أعرف أن شيئاً خطيراً سوف يحدث في تلك الليلة، وقد حصل فعلاً.

- وكيف عرفت؟

- كنت في غرفتي بأعلى القصر أستبدل ملابسي، وحانت مني نظرة خارج النافذة فرأيت القطار يمر تاركاً وراءه سحابة من الدخان ترتفع إلى السماء، وصدقني إذا قلت إن تلك السحابة ظلت تتشكل حتى تكونت منها صورة يد معسوفة الأصابع، كأنها يد القدر تريد أن تبطش بشيء. وأحسست بالخوف وأنا أقول لنفسي: "هذه علامة في السماء، لا بد أن شيئاً خطيراً سوف يحدث"، وفي تلك اللحظة نفسها سمعت الطلقات النارية داخل القصر، فقلت: آه! لقد حصل الأمر الخطير. واندفعت من غرفتي وانضممت إلى زملائي المجتمعين في القاعة الكبرى، ودخلنا معاً إلى غرفة الموسيقى حيث رأينا الليدي بارنابي مقتولة بطلقات نارية في رأسها والدماء متناثرة في كل مكان. منظر رهيب! وتحدثت، نعم، أخبرت السير جورج بارنابي كيف توقعت حصول شيء خطير كهذا حين رأيت تلك العلامة في السماء.

وظلت تتحدث في موضوعات مختلفة، وساترويت ينصت إليها في صبر ويحاول أن يردها إلى الحديث عن المأساة كلما ابتعدت عنها، وأخيراً أدرك أنه ظفر منها بكل ما يمكن من

معلومات وأن حديثها ينم على الصدق وسلامة الطوية.

ولما فكر فيما سمعه منها وجد أنه لم يظفر بشيء له أهمية خاصة، ولكن الشيء الوحيد الذي أثار اهتمامه هو ضخامة الراتب الذي جعلها تقبل العمل في كندا والرحيل في أسرع وقت من إنجلترا. فقد ذكرت له أن الذي قام بإجراءات ترحيلها على وجه السرعة هو مدير مكتب تخديم يدعى السيد ونمان، وهو يقيم في كندا، وقد نبهها من كتابة أية رسالة إلى زميلاتها في إنجلترا حتى لا توقع نفسها في مشكلات مع إدارة الهجرة، فتقبلت النصيحة منه بلا تساؤل أو ارتياب.

وقرر ساترويت أن يزور ذلك المدعو ونمان. ولم يجد مشقة في العثور عليه أو في تبادل الحديث معه. وقد ذكر له السيد ونمان أنه زار إنجلترا في عام ما وأن السيد تومبسون، سكرتير السير جورج، أدى له بعض الخدمات. وقد شاء أن يرد له الجميل حين كتب إليه السيد تومبسون منذ ثلاثة أشهر يرجوه أن يجد عملاً في كندا للخادمة لويزا بولارد، وقال له إن السير جورج سيضع بين يديه مبلغاً كبيراً من المال ليضيف منه كل أسبوع جزءاً على راتب لويزا فيصبح راتباً كبيراً يغريها بالبقاء في كندا.

وأردف السيد ونمان قائلاً وهو يتراخى في مقعده الوثير باسماً: إنها المشكلة المعتادة طبعاً... علاقة سرية بين السيد والخادمة، ثم يفيق السيد من نزوته ويسعى إلى ترحيل الخادمة إلى مكان بعيد تجنباً للفضيحة.

لكن ساترويت كان يعرف أن هناك شيئاً آخر أهم وأخطر

جعل السير جورج بارنابي (أو سكرتيره تومبسون) يعمل على إبعاد لويزا من إنجلترا بسرعة. فلماذا؟ وما هو السبب الخطير؟

وعاد إلى إنجلترا وهو يحاول معرفة ذاك السبب بالاستدلالات العقلية والتفكير المنطقي.

* * *

ومضى إلى مطعم آرليكشينو ذات ليلة وهو يشعر أنه عاد من كندا فاشلاً، ولم يكن يتوقع أن يلتقي من المرة الأولى بالسيد كوين جالساً كالمعتاد إلى المائدة في ركن القاعة، ولكنه تنهد بارتياح عندما رآه. فجلس قبالته بعد أن تبادل التحية معه، ثم قال وهو يتناول شطيرة: كانت الرحلة فاشلة تماماً.

- عجباً!

وهنا حدثه بكل ما سمعه من لويزا بولارد ومن مدير مكتب التخديم السيدة ونمان، فلما فرغ قال السيد كوين بهدوء: هل أنت واثق من أنك لم تظفر من لويزا بما تريد من معلومات؟

- ماذا تعني؟

- حسناً، حسناً. لقد رسمتَ لي صورة سريعة عن الحياة في قصر ديرنج هيل، لكنك لم تحدثني عن أوصافه من الخارج.

- لا شيء من أوصافه يثير الاهتمام. إنه قصر صغير مبنى بالآجر، يظهر من الخارج ريفياً ولكنه من الداخل رائع. غرف نوم مزودة بالماء الساخن والبارد، والحمامات الخاصة، والسجاجيد

الفاخرة، والأثاثات الرائعة... وهو يقوم وسط حديقة مساحتها فدانان ولا يبعد عن لندن إلا تسعة عشر ميلاً فقط.

فأنصت كوين بانتباه ثم قال: أعتقد أن مواعيد سير القطارات مضطربة في المنطقة؟

- لا، بل على النقيض. إنها مواعيد مضبوطة بالثانية، وهي حقيقة أنا واثق منها تماماً.

- والقطار الذي يقوم من محطة ديرنج فيل، هل يمر في طريقه إلى لندن على قصر ديرنج هيل؟

- نعم، لماذا؟

- أتذكر أنك قلت لي إن سيلفيا ديل كانت في وقت الحادث تودع صديقة لها ركبت قطار السادسة وثمان وعشرين دقيقة الذاهب من تلك المحطة إلى لندن؟

- نعم، نعم، إن أقوالها ثابتة في محضر القضية.

- حسن جداً. ألا تستطيع أن تجد علاقة بين تلك الحقيقة وبين ترحيل لويزا بولارد بسرعة عقب وقوع الحادث؟

- ماذا تعني؟

- ألا يظهر بوضوح أن الذي أمر بترحيلها يخشى أن تتحدث في المحكمة بما تحدثت به إليك؟

- أي حديث تعني؟

- الحديث عما رأت.

- وماذا رأت؟

- علامة في السماء!

حملق ساترويت في وجه السيد كوين ثم سأله: أتؤمن بمثل هذه الأوهام يا سيد كوين؟

- ربما، من يدري؟ فلعلها رأت في تلك اللحظة يد العدالة!

- أوه! ما هذا اللغو؟ لقد اعترفت بنفسها أنها لم ترَ غير سحابة من دخان القطار الذي كان يمر في تلك اللحظة.

- أي قطار؟

- لا شك أنه قطار الساعة السادسة وثمان وعشرين دقيقة الذاهب إلى لندن... ولكن هذا غير ممكن! فهي سمعت في تلك اللحظة صوت الطلقات النارية داخل القصر، وقد ثبت بالأدلة أن الطلقات النارية أُطلقت في الساعة السادسة والثلث لا السادسة والنصف.

- إذن كيف تفسر هذا التناقض في الأوقات؟

- لعله كان قطاراً آخر... قطار بضاعة مثلاً؟

- لو كان الأمر كما تقول لما اضطر السير جورج أو سكرتيره إلى ترحيل لويزا بمثل تلك السرعة.

حملق ساترويت في وجه السيد كوين مندهشاً، بينما استطرد الثاني يقول بهدوء: هيه، ما رأيك؟

- لا زلت في حيرة. إذا كانت الرصاصات قد أُطلقت على المجني عليها في تلك اللحظة التي مر فيها قطار الساعة السادسة وثمان وعشرين دقيقة، فلماذا أجمع الخدم على أنهم سمعوها في الساعة السادسة والثلث تماماً؟

- لسبب بسيط، وهو خطأ في الساعات التي حددت ذلك الوقت.

- جميع الساعات؟! إن تلك مصادفة غير معقولة.

- أنا لا أفكر في المصادفة، وإنما في أن الحادث قد وقع في مساء يوم الجمعة، فقد قلت لي إن السير جورج كان حريصاً على ملء ساعات القصر بعد ظهر يوم الجمعة من كل أسبوع.

وهنا قال ساترويت في رهبة وقد أدرك كل شيء: أي أنه قد أخّر جميع الساعات عشر دقائق، ثم ذهب ليلعب البريدج... ولا شك أنه قد قرأ بطريقة ما الرسالة التي أرسلتها زوجته إلى مارتن وايلد في الصباح، فوضع خطة الجريمة بإحكام، ثم غادر بيت صديقه في السادسة والنصف بينما كانت ساعات القصر كلها تعلن السادسة والثلث فقط. ووصل إلى القصر من الباب الجانبي في لحظات فوجد بندقية مارتن التي نسيها بجوار الباب، فاستعملها في ارتكاب الجريمة، ثم أسرع إلى الغابة وألقى بها ثم عاد إلى قصره حيث استقبله أحد الخدم بالنبأ. أما التليفون، نعم، فقد عطله عمداً حتى لا يستعمله الخدم في التبليغ عن الجريمة إلى رجال الشرطة لأنه لو تم التبليغ تليفونياً لسجل رجال الشرطة الوقت الحقيقي لوقوع الجريمة، أي السادسة والنصف تقريباً، وتلك الحقيقة تؤيد مارتن وايلد في

قوله أنه وصل إلى منزله في السابعة إلا ربعاً لأنه -في الحقيقة- قد غادر قصر السير جورج قبل السادسة والنصف بلحظات، لا بعد السادسة والربع بلحظة أو اثنتين. إنني أرى الآن كل شيء بوضوح... إن لويزا كانت الخطر الوحيد بحديثها عن أوهامها الخرافية وعما رأته من علامات في السماء، فقد كان من المحتمل أن يفطن أحد إلى دلالة مرور القطار في موعده المحدد وعندئذٍ تنهار خطة السير جورج من أساسها.

- مدهش، مدهش.

- لم يبق غير شيء واحد، وهو ماذا نفعل؟

- أقترح أن نعرض الأمر على الآنسة سيلفيا ديل خطيبة مارتن وايلد.

بدا الشك على وجه ساترويت ثم قال: لكنها فتاة، ماذا يمكنها أن تفعل؟

- إن لها والداً وإخوة يمكنهم اتخاذ الخطوات المناسبة.

- آه، هذا صحيح.

وبعد وقت وجيز كان ساترويت جالساً مع الفتاة سيلفيا ديل يقص عليها الأمر كله دون أن تقاطعه أو تلقي عليه سؤالاً، وإنما كانت منتبهة إليه بكل حواسها وتفكيرها. فلما فرغ نهضت قائلة: يجب أن أستقل الآن سيارة أجرة.

- لماذا؟ ماذا تنوين أن تفعلي يا آنستي العزيزة؟

- إنني ذاهبة إلى السير جورج بارنابي.

- هذا مستحيل، هذه خطوة خاطئة جداً. اسمحي لي.

وقد سمحت له بأن يتحدث إليها بما يريد وبأن يركب معها السيارة المأجورة، ولكنها كانت مصممة على تنفيذ خطتها، فلما توقفت السيارة المأجورة أمام مدخل البناية التي يقع فيها مكتب أعمال السير جورج بارنابي هبطت منها تاركة ساترويت فيها، ثم عادت بعد نصف ساعة وهي تبدو متعبة مشعثة الشعر تتراخى خصلات شعرها الذهبي كأزهار ذابلة.

واستقبلها ساترويت في قلق، لكنها قالت له بصوت هامس وهي تتراخى في جلستها وتغمض عينيها: لقد انتصرت.

فهتف قائلاً: ماذا؟ ماذا فعلت؟ ماذا تقولين؟

- لقد أخبرته أن لويزا ذهبت إلى الشرطة وذكرت قصة العلامة التي رأتها في السماء، وقلت له إن رجال المباحث يقومون بتحرياتهم، وقد شوهدوا يتسللون حول قصره ثم يخرجون منه بعد السادسة والنصف بلحظات. وبينت له أن أمره قد انكشف وأن خطته في ارتكاب الجريمة قد افتضحت، فانهارت أعصابه تماماً. ولكني بادرت وذكرت له أنه لا يزال أمامه متسع من الوقت للهرب وأن رجال الشرطة لن يأتوا للقبض عليه قبل ساعتين، وأكدت له أنني إذا حصلت منه على اعتراف مكتوب بأنه قتل فيفيان بارنابي فلن أحول بينه وبين الهرب، أما إذا رفض فسوف أصرخ وأجمع عليه سكان البناية وأجعلهم يمنعونه من الفرار بعد أن أخبرهم بالحقيقة كلها. وقد بلغ الفزع به حداً جعله لا يدري ماذا يفعل أو ماذا يقول، وأنت لا تدري (أو لعلك تدري) ماذا يمكن أن يفعل الفزع

بأعصاب أي إنسان. وهكذا كتب الاعتراف ووقعه بإمضائه قبل أن يدرك هول ما فعل.

ثم مدت يدها إلى ساترويت بالاعتراف المكتوب وأردفت قائلة: خذه، خذه، فأنت تعرف ماذا ينبغي أن تفعل به حتى يطلقوا سراح مارتن.

وصاح ساترويت وهو لا يكاد يصدق عينيه: عجباً! إنه موقع بإمضائه حقاً.

- لا عجب في هذا، فإن القاتل عادة يكون محدود الذكاء رغم ما قد يبدو من إحكام خطته، والشخص المحدود إذا اضطرب وارتبك فإنه يخطئ في تصرفاته ثم يندم بعد ذلك.

ولما رآها ترتجف قال لها: إنك في حاجة إلى كوب من القهوة لتهدئي من روعك، وأنا أعرف مطعماً جميلاً يمكننا أن نجلس فيه قليلاً. إنه مطعم آرليكشينو، فهل تعرفينه؟

هزت رأسها، فأوقف ساترويت السيارة المأجورة أمام المطعم ثم دخله مع الفتاة وهو يتمنى أن يجد السيد كوين في مكانه، لكن المقعد كان خالياً.

قالت سيلفيا حين رأت أمارات الاستياء تبدو على وجهه: ماذا حدث؟

- لا شيء. كنت أتوقع أن ألتقي بصديق هنا. ولكن لا بأس، فلا شك أنني سأراه مرة أخرى ذات يوم.

* * *

بيت الأسرار

كان السيد ساترويت يقضي في كل صيف بضعة أسابيع في جزيرة كابري كالمعتاد، وكانت عادته في أكثر الأيام عند الغروب أن يمضي في ذلك الطريق الذي تحف به الدور الصغيرة البيضاء الراقدة تحت ظلال النخيل، ومنها إلى الشاطئ الصخري، ومن الشاطئ إلى طريق صاعد بين صفين من أشجار السرو، حيث ينتهي عند ربوة يقوم عليها قصر صغير تحيط به حديقة واسعة يفوح منها شذا الورود والأزهار العطرة. وعلى بوابة حديقة هذا القصر كان يقف البستاني العجوز الإسباني الجنسية مانويل. وكان من عادته أن يقدم لكل عابر من الرجال وردة ناضرة ولكل عابرة من السيدات باقة جميلة من الزهور، ثم يضع في جيبه مع كلمة شكر رقيقة ما يجود به الرجال والنساء. وكثيراً ما كان يحلو للسيد ساترويت أن يتخيل سكان هذا القصر الذي لم يرَ فيه باباً أو نافذة مفتوحة أبداً في يوم من الأيام.

وكانت أعذب خيالاته، أن يتصور فيه مغنية أوبرا عالمية، أو راقصة باليه مشهورة، أو ممثلة كان اسمها يملأ الآذان وجمالها يملأ العيون ثم قررت أن تعتزل عالم المجد

والأضواء بعد أن امتد بها العمر، فانطوت على نفسها في هذا القصر الصغير حتى لا يرى أحد ماذا فعلت الأعوام بذلك الجمال الذي طالما بهر العيون وأسر القلوب. وللمرة الألف أو أكثر، راح ينظر في فضول شديد إلى نوافذ القصر الصغير دون أن يدري هل هو خالٍ تماماً أم أن به تلك الساكنة التي خلق حولها أطياف خيالاته. وأخيراً انحدر في ممر بالحديقة إلى ذلك المرتفع الرهيب الذي يطل على مياه البحر في منطقة ثائرة دائماً. وكان كلما جلس على ذلك المرتفع تذكر ذلك السباح الإنجليزي الذي غامر منذ أعوام بالقفز منه إلى المياه الثائرة، ولكنه عجز عن المقاومة فمات غريقاً. وتحولت أفكاره إلى الحياة والموت، الحياة والموت... ما هي الحياة؟ وما هو الموت؟

هل هو حقاً يحيا الآن أم أنه ميت يحلم؟ أم أنه سوف يحيا بعد أن ينتقل إلى عالم آخر؟ وتنبه من أفكاره هذه على صوت وقع أقدام خفيفة وراءه ثم على صوت رجل يقول: اللعنة! والتفت وراءه ليرى رجلاً في منتصف العمر ينظر إليه في دهشة واستياء، فتعرف السيد ساترويت عليه فوراً. كان قد رآه ينزل في اليوم الأسبق بنفس الفندق الذي ينزل هو فيه، وكان هناك شيء ما في مظهره وتصرفاته لفت انتباهه إليه.

فرغم أنه (أي ذلك الرجل الإنجليزي) كان قد تجاوز الأربعين من عمره، فقد كان يظهر كأنه في مقتبل الشباب والصبا، ومن ثم كان ساترويت يقول لنفسه كلما رآه: هذا الرجل من الأشخاص الذين يعيشون طيلة أعمارهم أطفالاً! كان ممتلئ الجسم بعض الشيء طويلاً، ينم وجهه عن أنه

لم يحرم نفسه يوماً من طيبات الحياة. لكن شيئاً ما في عينيه العسليتين كان يدل على حزن عميق أو اضطراب أو قلق مقرون بالدهشة والتساؤل.

وتنبه ساترويت من أفكاره على صوت الرجل وهو يقول له بلهجة اعتذار وارتباك: أنا آسف، فالواقع أنني دهشت وفوجئت، فما كنت أتوقع أن أرى أحداً في هذا المكان المنعزل.

فتزحزح ساترويت من مكانه قليلاً كأنما يدعو الرجل إلى الجلوس بجانبه، فلما قبل الدعوة وجلس قال له: الواقع أنه مكان منعزل فعلاً، ومع ذلك فكلما جئت إليه وجدت فيه شخصاً ما.

وكانت نبرات صوته تنم على الضيق والاستياء. ترى لماذا؟

فهز ساترويت كتفيه وهو يقول: إذن فقد جئت إليه من قبل؟

- كنت هنا مساء أمس بعد العشاء.

- حقاً؟ كنت أظن أن بوابة الحديقة تغلق بعد العاشرة مساء.

- نعم، ولكنني تسلقت سياجها.

- هل وجدت أحداً هنا في مثل هذا الوقت؟

- نعم، وكان يرتدي ثوباً تنكرياً.

- ثوباً تنكرياً؟

- نعم، ثوباً تنكرياً كالذي يرتديه المهرجون، والذي يسمى هارليكوين.

فنظر إليه ساترويت في دهشة وانفعال ثم قال متسائلاً: ما هذا؟

- إن نزلاء الفندق يرتدون عادة مثل هذه الملابس التنكرية في الحفلات الراقصة.

- آه! نعم، هذا حق.

- لقد أدهشني هذا الرجل بظهوره المفاجئ ثم باختفائه المفاجئ، وكأنه شبح يظهر ويختفي دون أن يعرف أحد من أين جاء أو إلى أين ذهب. لقد خيل إليّ أنه جاء من البحر.

فنظر ساترويت إلى الهاوية العميقة التي تنتهي بمياه البحر بينما أردف الرجل قائلاً: لكن هذا مجرد وهم بطبيعة الحال، فليس في هذا المرتفع الصخري مكان تقف عليه ذبابة. إنه هاوية تؤدي إلى النهاية في لحظة، وهو أيضاً مكان نموذجي لارتكاب جريمة قتل!

وحملق الرجل في وجهه مندهشاً، لكنه ما لبث أن غمغم قائلاً: آه نعم، نعم. مجرد دفعة باليد ينتهي كل شيء.

خيم الصمت على الرجلين واستغرق كل منهما في أفكاره، وفجأة قال الرجل الغريب كأنما يحدث نفسه: ما جدوى كل هذا؟ لماذا نحيا؟ ولماذا نموت؟

نظر إليه ساترويت دون أن يقول شيئاً، فتابع الرجل يقول: سمعتهم يقولون إن على كل رجل أن يبني بيتاً وأن يزرع شجرة وأن ينجب ولداً. ثم صمت برهة قبل أن يردف قائلاً: أعتقد أنني قد وضعت ذات يوم بذرة ابن.

واضطرم فضول ساترويت وقرر أن يعرف من أمر هذا الرجل الشاب كل ما يمكن معرفته. ولم يجد مشقة في ذلك، فما لبث هذا أن راح يفضي بالحديث عن نفسه وكأنما يجد في الإفضاء راحة من شيء يثقل عليه.

إن اسمه أنتوني كوزدين، وحياته صورة مطابقة لما تخيلها السيد ساترويت، حياة شخص ورث في شبابه ثروة طيبة تدر عليه ريعاً سنوياً لا بأس به. وعاش بهذا الريع حياة أقرب ما تكون إلى الفراغ والترف: أصدقاء كثيرون، ومباهج متوالية من الحياة، ونساء كثيرات... حياة يمكن أن يقال عنها بصراحة إنها حياة حيوانية. ثم جاءت النهاية، جاءت أولاً غامضة مبهمة. لقد أحس ذات يوم بألم بسيط فنصحه الطبيب بأن يعرض نفسه على أخصائي في شارع هارلي ستريت. ومع مرور الأيام عرف الحقيقة تدريجياً حين أخذ الأطباء ينصحونه بالحياة في هدوء وترفق وعدم إجهاد بدنه أو أعصابه، وانتهى الأمر بأنه عرف أن الفترة الباقية من عمره لا تزيد عن ستة أشهر.

واستدار أنتوني بعينيه الممتلئتين بالتساؤل والقلق والدهشة، ونظر إلى ساترويت كأنما يقول له: ما رأيك؟

فلم يجد ساترويت ما يقوله، فتابع الشاب قائلاً إنه حاول جهده أن ينسى أقوال الأطباء وأن يمضي في حياته كالمعتاد، ولكنه أدرك بعد أيام معدودة أن هذا غير ممكن، لأن أصدقاءه وصديقاته بدؤوا بالانصراف عنه. إنهم يريدون الحياة في بهجة ومرح، ويحبون الصديق الممتلئ الجيب بالمال والقلب بالحياة، لا الإنسان الذي يعيش بينهم في كفن. وأخيراً قرر مغادرة وطنه والمجيء إلى هذه الجزيرة.

فقال ساترويت وهو يحاول أن يجد ما يقوله: ولماذا هذه الجزيرة بالذات؟ هل سبق أن جئت إليها؟

- نعم، وأنا شاب في العشرين أو الثانية والعشرين من عمري.

وفجأة التفت وراءه وأرسل نظرة سريعة إلى القصر الصغير القائم فوق الربوة، ثم قال: إنني أذكر هذا المكان، فإن خطوة واحدة منه تؤدي بالإنسان إلى النهاية.

- ألهذا جئت أمس والليلة؟

نظر أنتوني إليه باستياء ثم قال: أوه، أعتقد أن هذا الأمر لا يخصك في شيء.

- لقد وجدت ليلة أمس شخصاً ووجدتني اليوم، وهذا يعني أن حياتك قد أُنقذت مرتين.

- يمكنك أن تقول ما تشاء. لكن اللعنة على كل شيء، إنها حياتي وأنا حر التصرف فيها.

- هذا تعبير معروف أصبح الآن على كل لسان.

فاعتدلت لهجة أنتوني وهو يقول: طبعاً، طبعاً. إنني أدرك حقيقة موقفك مني، فمن واجبك أن تنصحني وأن تخفف عني وأن تبث الأمل في قلبي فهذا واجبك حتى لو كنت تدرك تماماً أنني على حق. لكن أليس من الأفضل أن أضع نهاية حاسمة لحياتي بدل هذا الانتظار الرهيب للموت؟ بدل ذلك العذاب المنتظر في الأيام أو الأسابيع السابقة على الموت؟ لن أكون آسفاً على شيء لأنه ليس لي في الحياة مَن أهتم به.

فقال ساترويت بسرعة: ولو كان لك في الحياة من يهمك أمره؟

- لا أدري، لكني مع ذلك كنت أرى أنها الطريقة الفضلى. وعلى أية حال فليس لي...

ثم توقف عن الحديث فجأة فقال له ساترويت: أليست لك زوجة؟

- لقد عرفت نساء كثيرات، لكنها كانت علاقات عابرة إلا...

ومرة أخرى صمت فجأة ثم أردف: تمنيت لو كان لي ابن، لكن ما جدوى تلك الأمنية؟ حتى لو تحققت فإن الفترة الباقية من حياتي لا تزيد عن ستة أشهر، بل خمسة أشهر وستة أيام بالتحديد.

- إن الوقت (مثل كل شيء) مسألة نسبية، فمن يدرك أن هذه الأشهر الستة قد تكون أجمل شهور في حياتك كلها وأحفلها بالبهجة العميقة الحقيقية؟ هذا على فرض صحة أقوال الأطباء.

ظهر عدم الاقتناع على وجه أنتوني وهو يقول: لو كنت مكاني فهل في مقدورك أن تحتمل هذه الشهور الستة؟

فضحك ساترويت وقال: أولاً ينبغي أن أكون شجاعاً جداً لمواجهة هذه الأشهر الأخيرة من حياتي، وأخشى أن أقول إنني لا أتمتع بمثل هذا اللون من الشجاعة، وأنا ثانياً...

- حسناً؟

- أحب دائماً أن أعرف ماذا يخبئه الغد لي.

وهنا نهض أنتوني وأرسل ضحكة جوفاء وقال: حسناً يا سيدي ، أشكر لك هذه الفترة الطيبة التي أتحت لي فيها فرصة الحديث. ولست أدري لماذا تكلمت، والآن إذا سمعت عن حادث وقع لي فأرجو ألا تخبر أحداً أنه حادث مدبر مقصود. لكن لا يمكنك أن تقول ما تريد، فهل يضير الإنسان ما يقال عنه بعد أن ينفض يديه من الحياة؟

ثم أردف قائلاً وهو يهم بالانصراف: إنني لا أريد الليلة أن يقال عنك أنك دفعتني بيدك من فوق هذا المرتفع، ولا بأس من تأجيل الانتحار إلى غد أو بعد غد، فليس هناك ما يدعو إلى التعجل. حسناً، أرجو أن أراك الليلة في الفندق بعد العشاء.

وبعد انصراف الرجل بقي ساترويت منفرداً بنفسه، ينظر إلى الأفق البعيد ثم يقول لنفسه: والآن، ماذا بعد؟ وأخيراً نهض واقفاً فاستدار نحو الربوة ومضى في طريقه إليها ليخترق حديقة القصر ومنها إلى الطريق المنحدر نحو الفندق.

لكنه توقف فجأة أمام القصر الصغير وراح ينظر في شفق الغروب إلى نوافذه المغلقة، فعادت أطياف خياله تحوم حول تلك الراقصة أو المغنية التي لعلها تقيم فيها بعيداً عن أضواء المجد والشهرة بعد أن أخذ جمالها في الذبول، فاستبد به الفضول وهو يتقدم نحو كومة من الأحجار ويتسلقها إلى نافذة قريبة ثم يجذب مصراعها الخشبي كأنما يختبره. ولشدّما كانت مفاجأته حين وجد المصراع يستجيب له وينفتح، وإذا هو يتراجع حين رأى أمامه سيدة بملابس سوداء تغطي رأسها

بغطاء حريري أسود جامدة الوجه تنظر إليه بصمت.

فارتبك ساترويت وراح يعتذر بكل ما طرأ على ذهنه من كلمات إيطالية وفرنسية وإسبانية قليلة، وفيما هو يتراجع في خجل إذا به يتوقف حين سمع المرأة تقول له بصوت حاد كالطلق الناري: تعال.

وبلغ من قوة اللهجة الآمرة أن توقف، ثم عاد أدراجه كالكلب الذي يلبي أمر سيده. حتى إذا وقف متسمراً أمام النافذة قالت بصوت أقل حدة: هل أنت إنجليزي؟

وعاد ساترويت بقول معتذراً: لو كنت أعرف أنك إنجليزية لأحسنت الاعتذار باللغة التي أتقنها. إنني أعتذر بإخلاص عما فعلت. إن الفضول وحده هو الذي دفعني إلى هذه النافذة، فلم أكن أعرف أنها مهيَّأة للفتح. والواقع أنني كثيراً ما تساءلت عما في داخل هذا القصر؟

وهنا أرسلت ضحكة عميقة عذبة وقالت: إذا كنت تريد هذا فيحسن أن تتفضل بالدخول لترى بنفسك.

ثم تنحت له جانباً فدخل ساترويت وهو أشد ما يكون ابتهاجاً، فوجد نفسه في غرفة ذات أثاث فاخر، لكن الغبار كان متراكماً على كل شيء فيها. وقالت المرأة: إننا لا نجلس هنا لأننا لا نستعمل هذه الغرفة.

ثم عبرت معه بهواً كبيراً ومضت به إلى غرفة أخرى في الجانب الخلفي من القصر تطل على مياه البحر، وكانت أيضاً فاخرة الأثاث نظيفة مريحة. ودعته إلى الجلوس على مقعده

الوثير وهي تقول: لسوف تشرب الشاي معي. إنه شاي جيد تحسن خادمتي صنعه.

ثم مضت إلى باب الغرفة وأصدرت تعليماتها باللغة الإسبانية، وبعدئذٍ عادت وجلست أمامه، فاستطاع حينها أن يتأملها بإمعان. كان أول شعور خامره -وهو يراها- إحساسه العميق بالشيخوخة أمام فورة أنوثتها ووفرة حيويتها ونضارة مظهرها وقوة شخصيتها. كانت طويلة القامة ملفوفة الجسم خمرية اللون واسعة العينين رائعة الجمال، رغم أنها في نحو الأربعين من عمرها. وكان مجرد وجودها في الغرفة يجعل نور الشمس الغارب كأنه نورها وهي في سمت الضحى باهراً ساطعاً. وكان مجرد الجلوس في الغرفة أمامها يشعر الإنسان بهذه المتعة التي يحسها في يوم بارد وهو جالس أمام مدفأة تطرد عنه البرد وتملؤه بهذا الدفء الممتع.

فقال لنفسه: لقد بلغ من وفرة حيويتها أن راحت تنشرها حول من يجلس معها. ومع هذا كله كان يشعر بشيء من الخوف، فهو لم يكن يميل أبداً إلى المرأة ذات الطابع المسيطر.

قالت له بعد أن تأملته بدورها طويلاً: أنا سعيدة بحضورك، لأنني كنت في أشد الحاجة إلى من أتحدث معه في هذا المساء، ويظهر لي أنك من الأشخاص الذين يطمئن الإنسان في حديثه معهم.

وأقبلت الخادمة بالشاي، وبعد انصرافها قال هو على سبيل المحادثة: أتقيمين هنا؟

- نعم.

- دائماً؟! إن القصر دائماً مغلق، أو هكذا يبدو لي.

- أنا أقيم معظم أوقات السنة دون أن يعرف ذلك كثير من الناس، لأنني أستعمل فقط الجانب الخلفي من القصر.

- وهل هو ملك لك منذ... منذ أمد بعيد؟

- منذ اثنين وعشرين عاماً تقريباً، وقد عشت فيه عاماً كاملاً قبل ذلك التاريخ.

- هذه مدة طويلة جداً.

- العام أم الاثنين والعشرين عاماً؟

- إن هذا يتوقف...

فأومأت برأسها وقالت: نعم، هذا يتوقف على نوع الحياة نفسها. والواقع أنهما فترتان منفصلتان تماماً، ولست أدري أيهما أطول من الأخرى، حتى الآن لا أدري.

وبعد برهة من الصمت عادت تقول وهي تبتسم: لقد مضت فترة طويلة لم أتحدث فيها إلى أحد، ويلوح لي أنك من الأشخاص الذين يحبون أن يعرفوا أسرار الغير. لا، لا تعتذر، لأن الحياة أحياناً تكون مملة، لا سيما إذا عاش الإنسان ينتظر شيئاً ويطول انتظاره.

فابتسم وقال: يخيل لي أنك لست من الذين يقفون على هامش الحياة وينتظرون، فإنك واحدة من اللاتي رأى القدر

أن يجعلهن في خضم معركة الحياة وأن يكنّ صاحبات الأدوار الرئيسية في مسرحيات الحياة.

- ما أعجب ما تقول!

- ومع ذلك فأنا واثق مما أقول، فلا شك أن في حياتك الشيء الكثير من التجارب، أو ربما من المآسي.

ضاقت عيناها قليلاً وهي ترسل نظراتها نحو مياه البحر، ثم قالت: لو أنك مقيم هنا منذ فترة طويلة لأخبرك شخص ما عن السباح الإنجليزي الذي غرق في أسفل ذلك المرتفع الصخري، ولحدثك عن شبابه وقوته وجماله وعن زوجته التي وقفت على قمة المرتفع وشاهدته وهو يغرق.

- لقد سمعت شيئاً عن هذه المأساة.

- ذلك الشاب كان زوجي، وهذا القصر كان ملكاً له. وقد تزوجني وجاء بي إلى هنا وأنا في الثامنة عشرة من عمري، وبعد عام مات غريقاً. حملته الأمواج ودفعت به إلى الصخور المسنونة، وظلت تضربه بها حتى مزقت جسده.

فوجئ السيد ساترويت بحديثها فحاول أن يقول شيئاً، لكنها تابعت كلامها وهي تحدق النظر في وجهه: لقد تحدثتَ عن المآسي، فهل سمعت عن مأساة أقسى من هذه؟ زوجة شابة لم يمضِ على زواجها من حبيبها غير عام واحد، ثم إذا هي تقف ذات يوم عاجزة تماماً وترى حبيبها وشريك حياتها وهو يصارع الموت من أجل الحياة... وأخيراً صرعه الموت في أبشع صوره!

قال ساترويت في تأثر عميق: هذا فظيع! نعم، إنني أتفق معك في أنها ميتة ليس لها مثيل.

فأرسلت ضحكة عالية وهي تتراجع برأسها إلى الوراء، ثم قالت: بل هناك ما هو أبشع وأفظع من هذه الصورة، إنها صورة الزوجة الشابة وهي واقفة فوق المرتفع ترجو وتبتهل إلى الله أن... أن يغرق زوجها.

- يا إله السماوات! إنك لا تعنين...

- نعم، هذا ما أعنيه تماماً. لقد كنت راكعة هناك على المرتفع أبتهل إلى الله، وكانوا جميعاً يحسبونني أبتهل لنجاته، لكنني كنت على النقيض أتضرع إلى الله أن يخلصني منه وأن يحررني في الوقت نفسه من هذه الأمنية الشريرة. كنت أقول: "طهر نفسي يا رب من رغبة رؤيته ميتاً". لكن لم يكن ثمة فائدة، فقد كنت أتمنى موته بكل ذرة من كياني.

وصمتت برهة قبل أن تردف قائلة بصوت أكثر رقة: أليس فظيعاً؟ أليس هذا من نوع الانفعالات التي لا يمكن للمرء أن ينساها؟ نعم، لقد بلغت سعادتي ذروتها حين علمت أنه مات وأنه لن يستطيع العودة لتعذيبي.

فتمتم ساترويت مصدوماً: يا طفلتي المسكينة!

- نعم، كنت في ذلك الوقت أصغر من أن يحدث لي شيء رهيب كهذا. مثل هذه المآسي ينبغي أن تحدث ونحن أكبر سناً وأكثر تجربة، أي عندما نكون مستعدين لاحتمال فظاعتها. ولم يكن أحد يعرف ماذا كنت أعاني منه. لقد حسبته

عندما رأيته أول مرة شاباً رائعاً، ولشد ما أحسست بالزهو عندما طلب يدي للزواج. لكنني فوجئت بعد زواجنا بوحشيته. كان يغضب مني لأتفه الأسباب ولم يكن ثمة شيء أقوم به يرضيه، وقد بذلت كل جهد لإرضائه. كان يحلو له تعذيبي ويلتمس السعادة من إفزاعي، وكان يبذل كل جهوده لابتكار الوسائل التي تشقي حياتي وتملأ أيامي بالرعب. ولن أستطيع أن أذكر شيئاً منها، لكن يكفي أنني ظننته مجنوناً. وكنت هنا بمفردي في قبضة يده وتحت رحمته فاتخذ من تعذيبي هواية له، وكان أسوأ ما في الأمر أنني كنت حاملاً، وقد فعل بي شيئاً جعل الطفل يولد ميتاً. طفلي أنا مات أثناء الوضع... وكدت أنا أيضاً أن أموت، لكنني لم أمت. تمنيت الموت لكن لم أمت لكي أتعذب!

تمتم السيد ساترويت بكلمات عزاء مبهمة، بينما استطردت هي قائلة: وأخيراً جاء الخلاص بالطريقة التي حدثتك عنها، فإن بعض الفتيات المقيمات في الفندق سخرن منه قائلات إنه لا يستطيع القفز من ذلك المرتفع إلى الماء. وأراد أن يثبت قوته وبراعته رغم أن الجميع أكدوا له أن هلاكه في هذه المغامرة. لكنه كان شديد الزهو والغرور، وقد شهدته وهو يقوم بالمغامرة ثم وهو يغرق، فسررت بالخلاص منه... ليغفر لي الله.

مد ساترويت يده النحيلة الجافة وضغط بها على يدها، وقد خيل إليه أن آثار الزمن قد تلاشت عن وجهها فإذ هي قد ارتدت إلى التاسعة عشرة من عمرها.

وعادت تقول: لم أصدق الأمر من فرط سعادتي، فقد أصبح القصر ملكاً خالصاً لي وغدا بمقدوري أن أعيش فيه دون أن يعذبني أو يشقيني أحد. كنت في حياتي يتيمة ليس لي أقارب يهمهم أمري، وقد أدى هذا إلى تبسيط حياتي، فعشت بعد مصرعه كأنني في الجنة. نعم، كنت أسعد إنسانة في الوجود، وكان يكفيني أن أشعر بالسعادة حين أفكر أنني أقضي أيامي بلا آلام أو أحزان أو خوف مما سيفعله بي بين لحظة وأخرى. نعم، كنت كالذي يعيش في جنة الخلد.

فلما توقفت عن الحديث قال السيد ساترويت: وبعد ذلك؟

- أعتقد أن الإنسان بطبيعته لا يقنع، فبعد أشهر من هذه الحياة الهانئة بدأت أشعر بالعزلة والوحشة. بدأت أفكر في طفلي الذي مات، فلو أنه فقط... كنت أريد طفلاً ولعبة أتسلى بها. كنت أهفو بكل كياني إلى شيء أو إلى شخص أتسلى به. وتعتبر هذا حماقة صبيانية، لكن هذا هو الواقع.

- نعم، نعم، إنني أفهم.

- من العسير أن أشرح لك ما حدث بعد ذلك بالتفصيل. كان ثمة شاب إنجليزي يقيم في الفندق. وفي ذات ليلة وصل مصادفة إلى حديقة القصر، وكنت ألبس ثوباً إسبانياً فحسبني فتاة إسبانية من قرية مجاورة. فخطر لي أن أتسلى وأتظاهر بأنني إسبانية حقاً، ومثلت دوري ببراعة رغم أن إسبانيتي كانت رديئة. لكنه لم يكن يعرف منها غير عبارات قليلة، فزعمت له أن القصر ملك لسيدة إنجليزية أرستقراطية سافرت إلى منطقة

نائية، وقلت إنها هي التي علمتني لغتي الإنجليزية البسيطة. ولشد ما كان سروري وأنا أمثل دور المتكلمة بلغة إنجليزية سقيمة. وبدأ هو بمغازلتي، فاستجبت له وتظاهرت معه أن القصر ملك لنا وأننا تزوجنا في تلك الليلة وجئنا للإقامة فيه. واقترحت أن نتسلل إلى القصر عن طريق إحدى النوافذ، نفس النافذة التي دخلت أنت منها، وكان مصراعها مفتوحاً من الداخل. دخلنا في حذر إلى الغرفة التي كانت مهملة يعلوها الغبار كما هي الآن... ومجمل الأمر كانت لحظات جميلة مليئة بالانفعالات.

وتوقفت بغتة عن الكلام وتطلعت إلى ساترويت طويلاً كأنما تلتمس منه أن يدرك شعورها ويلتمس لها العذر. ثم تابعت تقول: كان كل شيء يبدو رائعاً وكأننا نعيش في أسطورة عذبة أو في قصر مسحور، وكان أجمل ما في الأمر كله أنه كان يلوح لي خيالياً لا أثر فيه للحقيقة.

فأومأ ساترويت برأسه بينما تابعت هي كلامها: كان يبدو لي شاباً إنجليزياً من الطراز العادي غادر بلاده في رحلة قصيرة للمتعة والنزهة، لكنه كان لطيفاً مرحاً، وقد تمادينا في القيام بدور الزوج والزوجة، أتفهم؟

وبعد برهة من الصمت عادت تقول: نعم، تمادينا في القيام بهذا الدور! وعاد هو في صباح اليوم التالي إلى الحديقة ورأيته من نافذة غرفة نومي، ولم يخطر بباله طبعاً أنني مقيمة في القصر فقد كان يحسبني فتاة إسبانية قروية. وكان قد طلب مني أن أقابله في اليوم التالي، ومن ثم راح يتلفت حوله

وينتظر. ولم أكن من ناحيتي أنوي أن أكرر المقابلة، لكن بدا لي أنه كان يشعر بالقلق من أجلي ومما فعل بي في الليلة الماضية. نعم، كان شاباً لطيفاً رقيق الإحساس.

وتوقفت ثانية عن الكلام قبل أن تتابع قائلة: ولم يعد في اليوم التالي. غادر الجزيرة ولم أره بعد ذلك. لكن طفلي منه ولد سليماً بعد تسعة أشهر. كنت في خلال هذه الأشهر أسعد إنسانة في الوجود، وقد فاضت كأس سعادتي عندما حملت لأول مرة الطفل، طفلي أنا، بين ذراعي. فتمنيت في تلك اللحظة لو أنني سألت ذلك الشاب الإنجليزي عن اسمه حتى أسمي الطفل به، فقد ظهر لي أنني ظلمته في احتفاظي بالطفل لي وحدي. لكنني كنت في أعماق نفسي أشكره وأعترف بجميله لأنه أعطاني كل ما كنت أتمناه في حياتي.

- هل الطفل موجود حتى اليوم؟

- نعم. إن اسمه جون، وهو الآن شاب رائع في العشرين من عمره، وإنني أتمنى لو أنك تراه. سوف يغدو مهندس مناجم، وكان ولم يزل أجمل وأبر الأبناء. وقد أخبرته أن والده الإنجليزي مات قبل مولده بأسابيع قليلة.

فحملق ساترويت في وجهها مندهشاً لهذه القصة التي سمعها، لكنه كان في الوقت نفسه يشعر أن القصة لم تتم فصولها بعد. ثم قال: إن عشرين عاماً وقت طويل جداً. ألم تفكري خلالها بالزواج مرة ثانية؟

- كان ابني يملأ حياتي دائماً.

ثم أردفت قائلة وهي تنظر إلى مياه البحر في ذهول: لكن الحياة لا تبقى على حالة واحدة أبداً، لا بد أن تقع فيها الأحداث، وكثيراً ما تكون هذه الأحداث العجيبة غريبة غير متوقعة. ولعلك لن تصدقني مثلاً حين أقول لك إنني لم أكن أحب والد ابني جون عندما عرفته في تلك الليلة، بل لم أكن أعرف ما هو الحب في ذلك الحين. وقد توقعت بداهة أن يكون الابن شبيهاً بي، ولكنه جاء لا يشبهني في شيء، بل إن من يراه لا يظن أنني أمه. لقد جاء شبيهاً بأبيه تماماً: وهكذا تعلمت كيف أعرف أباه عن طريقه، وعن طريق الابن تعلمت كيف أحب ذلك الأب الذي لم أعرفه غير ليلة واحدة، وإني لأحبه الآن وسوف أظل على حبه إلى غاية العمر. لعلك ستقول إنني واهمة وإنني أقمت حبي على أساس من الوهم، ولكن لا، تأكد أنني أحب الآن ذلك الرجل. أحب الرجل بدمه ولحمه وكل شيء فيه، أعني لا أحب صورته أو خياله... ولو أنني رأيته الليلة أو غداً فسوف أعرفه فوراً رغم هذه الأعوام العشرين التي مرت على فراقنا. لقد عشت هذه الأعوام العشرين وأنا أحبه، وسوف أبقى على هذا الحب حتى الممات.

وتوقفت بغتة قبل أن تتابع كلامها في تحد: هل تظن أنني مجنونة إذ أقول هذا؟

فتناول ساترويت يدها بين يديه وتمتم قائلاً بحنان: لا، لا، أبداً يا عزيزتي.

- هل تفهم حقيقة مشاعري؟

- نعم، نعم، ولكن هناك شيئاً آخر، شيئاً لم تخبريني به بعد.

فقطبت جبينها ثم قالت: نعم، هناك شيء آخر. يلوح لي أنك خبير بدخائل النفوس، لكني أؤثر ألا أخبرك بهذا الشيء لمصلحتك.

وعندئذٍ قال ببطء: حدث شيء لم يكن متوقعاً، أليس كذلك؟

طرفت عيناها قليلاً وهزت رأسها في استسلام، ثم قالت: نعم، ولكنني أؤثر ألا أخبرك به، وذلك كما قلت لك لمصلحتك.

- هل تخشين أن أصبح شريكاً في المسؤولية إذا عرفت؟

فشحب وجهها فجأة وزمت شفتيها، وعندئذٍ قال لها: إنك تفكرين بالانتحار؟

- أوه! كيف عرفت؟ كيف عرفت؟

- هذا عجيب! لم أرَ في حياتي امرأة ممتلئة بالحيوية والرضا وحب الحياة مثلك، فلماذا تفكرين في الانتحار؟

فنهضت ومضت إلى الشرفة المطلة على البحر وقالت: لأنقذ ابني من الحقيقة. إنه لا يعرف أنه ابن سفاح، ولو عرف هذه الحقيقة فسوف ينهار تماماً لأنه شديد الاعتزاز بنفسه، وقد أحب أخيراً فتاة وقرر الزواج بها، وسوف يحضر بعد وقت قريب ليعرف كل شيء عن أبيه... عن حسبه ونسبه حتى يكون

مستعداً لأسئلة أهل الفتاة. فلو عرف حقيقة أمره فسوف يقطع علاقته بالفتاة ويرحل إلى مكان ناء ليغرق في الشراب والضياع. أوه، أنا أعرف ماذا تريد أن تقول. ولكن لا، إنني أعرف ابني أكثر منك، إنه لن يطيق أبداً أن يعيش بين أشخاص يعرفون أنه ابن سفاح، والناس في مثل هذه الحالات لا يرحمون ولا يغفرون. ولكن إذا وقع لي حادث قضى على حياتي قبيل مجيئه فسوف يضيع كل شيء في غمار هذا الحادث، وحين يفتش الأوراق التي سأتركها ورائي فإنه لن يجد شيئاً، وسوف يستاء لأنني لم أخبره بشيء كثير عن والده لكنه لن يشك في شيء. هذه هي الوسيلة الفضلى، وعلى الإنسان أن يدفع ثمن سعادته. لقد اغترفت من السعادة الشيء الكثير بحيث أعتبر أن تضحيتي بحياتي ثمن بسير. كل ما أحتاجه بعض الشجاعة لأقفز من فوق المرتفع ثم أتحمل عذاب الموت لحظة أو لحظتين.

- لكن يا طفلتي العزيزة...

- لا تتعب نفسك في محاولة إقناعي. لقد قررت أمراً وانتهيت منه، وحياتي هي ملكي الخاص. لقد كان ابني جون في حاجة إليها لينمو وقد نما، وهو الآن في حاجة إلى أن أفقدها لينجو من العار، ولسوف أضحي بها من أجله، وإن من حقي أن أفعل بحياتي ما أشاء.

- هل أنت واثقة من هذا؟

- كل الثقة، لأن حياتي لم تعد نافعة لأحد.

- ومن أدراك؟

- ماذا تعني؟

- اسمعي، لسوف أضرب لك مثلاً على أن حياة أي إنسان قد تكون نافعة لإنسان آخر دون أن يدري، بل قد تكون سبباً في حياة إنسان آخر بلا قصد منه. فقد حدث مثلاً أن جاء رجل إلى المرتفع ليلقي بنفسه إلى البحر ولكنه وجد رجلاً آخر جالساً ففشل في تحقيق رغبته وعاد من حيث أتى ليعيش. فما معنى هذا؟ معناه أن الرجل الثاني أنقذ بلا قصد أو غرض حياة الرجل الأول. أي أن وجود الرجل الثاني على قيد الحياة كان السبب في إنقاذ راغب الانتحار من الموت. وأنت مثلاً، ألا يمكن أن تكوني ماشية في الطريق في زمان محدود في مكان معين أثناء انطلاق جواد جامح ويوشك هذا الجواد أن يدوس بسنابكه طفلاً يحبو، لكنه (أي الجواد) يراك فينحرف نحوك، فتستطيعين أنت أن تتجنبي خطره، وبذلك ينجو الطفل بسبب وجودك حية ثم يعيش ليصبح مخترعاً عظيماً أو طبيباً نابغة يكشف علاجاً لمرض السرطان أو عقاراً مثل البنسلين؟

قالت: إنك لرجل عجيب. لم يخطر ببالي أبداً أن أفكر في مثل هذا الذي تقول. ثم أردفت قائلة بعد برهة صمت: والآن ماذا تريد مني؟

- أريد منك فقط أن تعديني بألا تفعلي بنفسك شيئاً لمدة أربع وعشرين ساعة.

- حسناً، لك هذا.

- لي رجاء آخر، هو أن تتركي مصراع النافذة التي دخلت

منها الليلة مفتوحاً من الداخل كما حدث الليلة تماماً، وأرجو أن تكوني في انتظار شخص ما.

فحملقت في وجهه بدهشة، ثم أومأت أخيراً برأسها. وهنا نهض ساترويت قائلاً: الآن يجب عليّ أن أنصرف، بارك الله فيك يا عزيزتي.

* * *

حين دخل إلى الفندق كان الليل قد أرخى على العالم أستاره، وهناك في شرفة الفندق رأى شخصاً يجلس في منعزل. فتقدم وهو يشعر أن مصير شخصين قد أصبح بين أنامل أصابعه وأن أقل خطأ في التصرف قد يأتي بنتيجة عكسية.

قال ساترويت بهدوء: جو لطيف الليلة، لقد نسيت نفسي وأنا جالس في ذلك المرتفع.

فقال الرجل الذي لم يكن غير أنتوني كوردين: هل كنت فوق المرتفع كل هذا الوقت؟

فأومأ برأسه، وبغتة قال أنتوني وهو يزم شفتيه في تصميم رهيب: لسوف أتمشى بعد العشاء على الشاطئ، أتفهم؟ إن المرة الثالثة ستكون الأخيرة، وإنني لأستحلفك بالله ألاّ تتدخل، فأنا أعرف أنك تبغي الخير لكني أؤكد لك أن تدخلك لن يجدي.

فنهض ساترويت وشد قامته قائلاً: إنني لا أتدخل في شؤون الغير أبداً، لكن الأحداث أحياناً، أو الفضول أحياناً، يرغم

الإنسان على تصرفات لم تكن تخطر بباله. فمثلاً حدث الليلة...

ثم جلس وصمت فقال أنتوني: ماذا حدث الليلة؟

- بينما أنا في طريق العودة نظرت للمرة الألف إلى ذلك القصر الصغير فوق التلة، وللمرة الألف تساءلت عمّن يكون مقيماً فيه؟ ثم دفعني الفضول إلى تصرف خاطئ، وإذا أنا أحاول فتح مصراع خشبي للنافذة الأرضية.

- هل فعلت هذا حقاً؟ لا شك أنك وجدته مغلقاً؟

- لا، بل وجدته مفتوحاً. إنه مصراع النافذة الثالثة عند الطرف الأيسر من القصر.

فهتف أنتوني قائلاً: عجباً، عجباً! إنها نفس النافذة التي...

وتوقف بغتة، لكن ساترويت لمح البريق الذي تألق في عينيه في تلك اللحظة، وحينئذٍ نهض وغادر الشرفة مطمئناً.

* * *

في العاشرة من صباح اليوم التالي صعد إلى حديقة القصر حيث استقبله البستاني العجوز مانويل بوردة عاطرة ثبتها في عروة سترته، وفي وسط الحديقة وقف ساترويت ينظر إلى القصر الصغير الجاثم فوق التلة في سكون وهدوء وسلام. وبغتة فُتح باب جانبي من القصر وخرجت منه السيدة التي رآها أمس وشرب معها الشاي. كانت تتجه إليه بخطوات خفيفة رشيقة كأنها تسير على الهواء أو كأنها إنسان يعيش في نشوة حالمة ويتمايل من فرط الفرح والابتهاج، أو كأنها زهرة أضناها

الجفاف فأسعدها الطل والندى فإذا هي أنضر وأبهى ما تكون.

وأقبلت عليه كأنها البهجة مجسمة، ووضعت يديها على كتفيه وقبلته في حب واعتراف بالجميل وهي تقول بصوت متهدج: لشد ما أنا فرحة، لشد ما أنا فرحة يا عزيزي! كيف عرفت؟ كيف أمكنك أن تعرف أنه هو؟ يخيل لي أنك ساحر عجيب.

ولهثت أنفاسها من شدة الفرح وهي تردف قائلة: لسوف نذهب اليوم إلى القنصل لنعقد الزواج، وحين يأتي ابننا جون سيجد أباه في انتظاره، ولسوف نقول له إننا قد افترقنا قبل مولده وأخيراً جمعت الأقدار بيننا وتم الصلح، ولن يسأل الكثير عن أسباب الخصام حتى لا يحرجنا. آه، ما أشد سعادتي، ما أشد سعادتي!

كانت البهجة حقاً تشع منها وتنتشر حولها كأنها العطر العذب المنساب من أجمل الورود وأعطرها، وعادت تقول: لشد ما كانت بهجة أنتوني عندما عرف أن له ولداً. لم يخطر ببالي أنه سيهتم بالأمر كل هذا الاهتمام. مَن كان يصدق أن الحياة كانت تدّخر لنا كل هذه السعادة في النهاية؟

فقال لها بلطف: لسوف تُسدين إليه أعظم خدمة إذا أنت ملأت حياته بالبهجة في الأشهر القليلة القادمة.

فبرقت عيناها بالدهشة، ثم قالت بصوت كله التصميم: أوه! أتعتقد أنني سأتركه يموت بعد أن انتظرته كل هذه السنين؟ لا، لا، هذا هو المحال. إن مئات من الأطباء يخطئون في كل

أنحاء العالم في كل يوم، وإن مئات من الأطباء يفقدون الأمل في حياة مئات المرضى كل يوم، ولكن الأقدار تسخر منهم ويموت الطبيب ويعيش المريض.

فنظر إليها وتأمل بوجهها الجميل المفعم بالحيوية وقوة الإرادة والتصميم وحب الحياة، وأومأ أخيراً برأسه. نعم، إنه هو أيضاً يعرف أطباء أخطؤوا التشخيص وفقدوا الأمل لكن المريض عاش واسترد صحته.

وعادت تقول: أتعتقد أنه سيموت؟

- بل أعتقد أن حبك سيمد في أجله ويطيل في عمره بإذن الله.

* * *

صوت في الظلام

قالت الليدي سترانلي للسيد ساترويت: إنني أشعر بالقلق على مارجريت، ابنتي كما تعرف، وإن الإنسان ليشعر بهذه الشيخوخة البغيضة إذا كانت له ابنة شابة في مثل عمر مارجريت.

فقال ساترويت مجاملاً: الذي يراك لا يصدق أن لك ابنة شابة.

- أوه، إنها مجرد مجاملة.

نظر ساترويت إلى الليدي في إعجاب ودهشة، فقد كانت تبدو في سن الصبا والشباب رغم تجاوزها الخمسين من العمر، ولا شك أن صالونات التجميل في كل أنحاء أوروبا قد ظفرت منها بأموال طائلة.

وكانا جالسين تحت مظلة على شاطئ البحر بمصيف كان. وعادت الليدي تقول وهي تشعل سيجارتها بقداحة ذهبية مرصعة: نعم، إنني أشعر بالقلق على ابنتي مارجريت.

- لماذا؟ ماذا حدث؟

- أنت لم ترها، أليس كذلك؟ إنها ابنتي من زوجي السابق تشارلز.

وكان ساترويت يعرف أن الليدي سترانلي تتخذ من الزواج هواية أو نوعاً من اللهو تزجي به وقت فراغها، وقد تزوجت أربعة رجال مات أحدهم وطلقت الباقين.

وبعد برهة من الصمت تنهدت الليدي وقالت: صارت مارجريت ترى وتسمع أشياء غامضة، أشباحاً أو أشياء من هذا القبيل. إنها فتاة عاقلة متزنة لا تتردد على الحفلات ولا تهفو إلى السهرات الصاخبة، أو بمعنى أصح هي فتاة من الطراز القديم، تحب فقط ركوب الخيل والصيد والبقاء في قصرنا بإنجلترا.

وأرسلت أنفاساً من سيجارتها في الهواء ثم عادت تقول: إنني أشعر بالقلق عليها لأن سماع الأصوات الغامضة دلالة خطيرة على قرب الإصابة بالجنون. والواقع أن قصرنا «أبوت ميد» كان مسكوناً بأحد الأشباح، ولكنه هُدم تماماً في عام ١٨٣٦ وأعيد بناؤه على الطراز الفيكتوري القديم، وأعتقد أنه لا يمكن أن يكون مقراً لأي شبح لأنه عادي البناء قبيح الشكل.

ثم ابتسمت الليدي وقالت بغتة: خطر لي أنك ربما استطعت أن تساعدنا.

- أنا؟

- نعم. أنت عائد غداً إلى إنجلترا، أليس كذلك؟

- نعم، نعم.

- وأنت تعرف الشيء الكثير عن هؤلاء المهتمين بتحضير الأرواح وما إلى هذا، لا شك في ذلك، فأنت تعرف معظم الناس وفي كل مكان.

فحاول ساترويت أن يقول شيئاً، لكنها قاطعته: حسناً، اتفقنا. إنك رجل ممتاز يا سيد ساترويت، آه، هذا هو بيمبو.

رأى ساترويت شاباً في نحو الثلاثين من عمره يحمل مضرب التنس ويتقدم نحو الليدي سترانلي، وكانت هي تبتسم له في إعجاب وتقول: إنه مدربي في رياضة التنس، وهو شاب رقيق لطيف يعرف كيف يختار أجمل الألفاظ في حديثه. مرحباً بيمبو.

وانطلقت الليدي إلى الشاب تاركة ساترويت يقول لنفسه: ترى هل سيكون بيمبو هذا هو الزوج الخامس؟

* * *

فوجئ السيد ساترويت وهو في القطار برؤية السيد كوين جالساً في نفس المقصورة، فأشرق وجهه ابتهاجاً وقال: ما أعجب وألطف هذه المصادفة يا عزيزي السيد كوين!

- نعم يا سيد ساترويت، إنها مصادفة لطيفة جداً حقاً.

- أنت عائد إلى إنجلترا على ما أعتقد؟

- نعم، في مهمة خاصة.

فقال ساترويت في شيء من الزهو: وأنا أيضاً عائد في مهمة خاصة، لعلك تعرف الليدي سترانلي؟

فلما هز السيد كوين رأسه تابع ساترويت قائلاً: إنها تحمل لقباً قديماً جداً من الألقاب التي يتوارثها أفراد الأسر جيلاً بعد جيل، الأكبر فالأكبر من أفرادها. إنها تحمل لقب بارونة بالوراثة المطلقة.

وتراخى السيد كوين في مقعده وهو يمسك كأس شرابه ويتأمله، ثم قال: يبدو أنك ستخبرني تاريخ أسرة عريقة يا سيد ساترويت، ولا شك أنه تاريخ طريف مثير، أليس كذلك؟

فأشرق وجه السيد ساترويت بالرضا وهو يقول: نعم، نعم، إنها، هذه الليدي سترانلي، امرأة مدهشة. إنها في الستين من عمرها، ومع ذلك فلو رأيتها لما حسبتها تجاوزت الأربعين، جميلة ناعمة البشرة متألقة العينين. وكنت أعرفها هي وأختها الأكبر منها بياتريس منذ كانتا في سن الصبا، بياتريس وبربارا، كانتا شابتين جميلتين فقيرتين في ذلك الحين، لكن هذا كان منذ عهد بعيد. نعم، وقد كنت أنا أيضاً في ذلك العهد شاباً وسيماً موفور الحيوية والصبا. وكان بينهما وبين اللقب والثروة أشخاص كثيرون من أفراد الأسرة، وكان حامل اللقب والحائز على الأملاك كلها هو اللورد سترانلي ابن عم أبيهما، وشاء القدر أن يموت أخواه وابن عم له. نعم، وقعت كارثة الباخرة يوراليا، هل تذكر مأساة غرقها؟ لقد هوت إلى قاع البحر بالقرب من شاطئ نيوزيلندا، وكانت الفتاتان من بين ركابها، وقد غرقت الأخت الكبرى بياتريس ونجت بربارا الأخت الصغرى، وبعد ستة أشهر من الكارثة مات اللورد سترانلي العجوز فورثت بربارا اللقب والثروة الضخمة، وراحت منذ ذلك الحين تعيش من أجل شيء واحد فقط:

نفسها. لقد ظلت دائماً الفتاة التي تعرف كيف تمتع نفسها بكل طيبات الحياة وكيف تفكر في مباهجها وسعادتها وكل ما يخصها دون الآخرين، وتزوجت أربع مرات، وأعتقد أنها في الطريق للزواج من الخامس الآن.

وبعد أن ذكر للسيد كوين تفاصيل المهمة التي يسافر من أجلها إلى إنجلترا، استطرد قائلاً: وسأمضي فوراً إلى قصر أبوت ميد لأزور الابنة الشابة مارجريت، فأنا أشعر أنه ينبغي مساعدة هذه الابنة في محنتها. ما رأيك؟ أتأتي معي؟

- أعتقد أنني لن أستطيع، لكن ألا يقع قصر أبوت ميد في إقليم ويلشير؟

- نعم.

- حسناً، لسوف أكون مقيماً في فندق صغير بالقرب من مزارع القصر يدعى فندق «بيلز موتلي»، ولا شك أنك تعرفه لأننا التقينا فيه ذات مرة.

- هل سأجدك فيه إذا أردت مقابلتك؟

- نعم، سأقضي فيه أسبوعاً أو عشرة أيام وسوف تجدني في انتظارك هناك.

* * *

قال السيد ساترويت في صوت كله رفق وتلطف: تأكدي، يا عزيزتي مارجري، أنني آخر من يضحك من مخاوفك.

كان جالساً مع مارجريت جيل في البهو الكبير بقصر

أبوت ميد، وكانت هي فتاة طويلة القامة ملفوفة الجسم سوداء الشعر، أقرب ما تكون شبهاً بأبيها الذي كان عمدة البلدة مشهوراً بالقوة والحزم والتصميم. وكانت تبدو في نضارتها وصباها واتزان تفكيرها نموذجاً للعقل والحكمة، ومع هذا فقد تذكر السيد ساترويت أن أفراداً في أسرتها كانوا يعانون من اضطرابات عقلية، فلعل مارجريت قد ورثت عن أبيها قوة الجسم ونضارته وعن أمها بعض الاضطرابات العقلية.

قالت مارجريت: أتمنى لو عرفت كيف أتخلص من تلك المرأة كاسون، فأنا لا أؤمن بتحضير الأرواح ولا أحب هذه العملية إطلاقاً، لكن أمي متصلبة متعصبة لآرائها وهي تصر على استحضار وسيطة روحية للتخلص من تلك الأصوات الخفية.

فتململ ساترويت في مجلسه برهة ثم قال وهو يتنحنح: أرجو أولاً أن ألم بكل الحقائق الأولية. لقد بدأت تسمعين هذه الأصوات الخفية منذ شهرين، أليس كذلك؟

- نحو ذلك، وأحياناً كنت أسمعها خافتة هامسة وأحياناً واضحة قوية، لكن الكلمات كانت هي هي دائماً.

- ماذا كنت تسمعين؟

- "أعيدي ما ليس لك، أعيدي ما سرقت"... وفي كل مرة كنت أضيء الغرفة فلا أجد أحداً. وأخيراً اضطربت أعصابي فجاءت السيدة كلايتون، وصيفة أمي، لتنام على أريكة معي في نفس الغرفة.

- ومع ذلك كنت تسمعين الصوت كالمعتاد؟

- نعم، وهذا ما يفزعني لأن السيدة كلايتون لم تكن تسمع هذا الصوت، ولهذا السبب نصحتني بعرض نفسي على طبيب. لكن بعد الذي حدث في الليلة الماضية بدأت تلتمس لي العذر.

- وماذا حدث في الليلة الماضية؟

- كنت سأخبرك به رغم إنني لم أخبر أحداً قط.كنت طوال يوم أمس أمارس رياضة الصيد، ومن ثم استغرقت في نوم عميق من فرط التعب والإجهاد. ثم رأيت في المنام حلماً رهيباً، رأيت أنني أقع على حاجز حديدي مدبب وأن أحد قضبانه المدببة قد دخل في عنقي، وأن ذلك الصوت الخفي يقول لي: "أعيدي ما سرقته مني وإلا فالموت لك"! فصرخت في فزع وضربت الهواء بيدي، لكني لم أجد شيئاً، واستيقظت كلايتون على صرختي (وكانت نائمة في الغرفة التالية مباشرة) فأسرعت إليّ، وشعرَتْ بوضوح بشيء ما يلامسها وهو يخرج من الغرفة، ولكنها تؤكد أن هذا الشيء -أياً كان- لم يكن مخلوقاً آدمياً!

حملق سيد ساترويت في وجه مارجريت وأمارات الدهشة بادية على وجهه، ثم تحولت نظراته إلى ضمادة صغيرة تخفي جرحاً في عنقها، فأومأت برأسها وقالت: نعم، هذا هو أثر السن المدبب الذي شعرت به أثناء الحلم، ومعنى هذا أن الأمر ليس مجرد أوهام فقط.

- هل هناك أحد يكرهك أو يحقد عليك؟

- لا طبعاً، لماذا؟

- لا شيء، مجرد سؤال. هل كان لديك ضيوف يقيمون في القصر خلال الشهرين الماضيين؟

- إن مارسيا كين (وهي من أعز صديقاتي ومن هاويات ركوب الخيل مثلي) هي فقط التي أقامت ولا تزال تقيم معي هنا منذ أكثر من شهرين، وهناك ابن عمي رولي فافوزوار الذي يقضي معنا أياماً كاملة بين الحين والآخر. هذا عدا ضيوف نهاية الأسبوع كالمعتاد.

فأومأ ساترويت برأسه، ثم اقترح أن يرى الوصيفة كلايتون وهو يقول: أعتقد أنها كانت معك منذ أمد بعيد؟

- نعم، فقد كانت وصيفة لأمي ولخالتي بياتريس عندما كانتا شابتين، وهذا -على ما أعتقد- هو ما جعل أمي تحتفظ بها رغم أنها تستخدم لنفسها وصيفة فرنسية خاصة. وكلايتون تقوم الآن بأعمال الخياطة وبعض الأعمال الخفية في القصر.

ونهضت مارغريت فمضت مع السيد ساترويت إلى الطابق الأعلى من القصر. ولم تلبث الوصيفة كلايتون أن أقبلت، فرآها ساترويت سيدة عجوز، طويلة القامة، نحيلة الجسم، تفرق شعرها الأشيب من الوسط بعناية وتبدو نموذجاً للوقار والثبات.

وقد قالت مجيبة على أسئلة ساترويت: لا يا سيدي، إنني لم أسمع أبداً أن هذا القصر «مسكون» بشبح. والواقع إنني ظننت الآنسة مارجريت واهمة تماماً حتى رأيت ما حدث بالأمس، فقد أحسست فعلاً بشيء يلمسني وهو يسرع في الظلام... شيء

لا يمت إلى البشر أبداً! ثم هناك أيضاً ذلك الجرح في عنقها، فليس من المعقول أن تكون قد فعلت هذا بنفسها.

لكن هذه الكلمات الأخيرة جعلت السيد ساترويت يتساءل: هل يمكن أن تكون قد جرحت نفسها حقاً حتى تثبت للجميع أنها ليست واهمة؟ لقد سمع عن حالات كثيرة في كل منها فتاة تبدو عاقلة مثل مارجريت، ومع ذلك ترتكب مثل هذه الحماقات.

قالت كلايتون: إنه جرح بسيط سوف يلتئم بسرعة، وليس مثل هذا الجرح.

وأشارت إلى أثر جرح في جبينها وتابعت تقول: لقد أُصبت بهذا الجرح منذ أربعين عاماً، ولا زال أثره باقياً.

فقالت مارجريت: أصيبت به عندما غرقت الباخرة يوراليا، وذلك عندما سقط على رأسها قضيب حديدي. أليس كذلك يا سيدة كلايتون؟

- نعم يا آنستي.

فقال ساترويت: وما رأيك الخاص في هذا الموضوع يا كلايتون؟ أعني موضوع الآنسة مارجريت جيل؟

- في الواقع أفضّل ألا أقول شيئاً.

- لماذا؟

- لأنني أعتقد أن ظلماً كبيراً قد حدث في هذا القصر.

وحتى يرتفع الظلم ويعود الحق إلى أصحابه فلن يكون هناك راحة أو سلام.

قالت ذلك وهي تنظر إلى وجه ساترويت في ثبات بعينيها الزرقاوين الباهتتين.

* * *

هبط إلى الطابق الأرضي وهو غير مقتنع برأي كلايتون في أن ظلماً كبيراً وقع في هذا القصر، ثم خطر له أن هذه الظاهرة الخفية لم تحدث إلا منذ شهرين، أي منذ إقامة مارسيا كين صديقة مارجريت في القصر، ومنذ أن أخذ ابن العم رولي فافوزوار يتردد كثيراً للإقامة فيه. ومن ثم قرر أن يعرف الشيء الكثير عن هذين الشخصين فلعل الأمر كله لا يعدو أن يكون دعابة من النوع الثقيل.

ووجد مارجريت تفتح الخطابات الواردة إليها في ذلك اليوم، فلما رأته قالت له في دهشة: إن أمي غريبة الأطوار في رسالتها هذه، اقرأها. فقرأ في الرسالة ما يلي:

حبيبتي مارجريت،

سرني أن السيد ساترويت ينزل ضيفاً عليك، فهو يعرف الكثيرين من المشتغلين بالمباحث الجنائية ويمكنه الالتجاء لهم ليكشفوا عن سر هذه الأصوات الخفية التي تسمعينها. وأتمنى لو أنني بجانبك، لكني أشعر في هذه الأيام الأخيرة بتوعك مستمر في صحتي، ويبدو أن الفندق قد أصبح يهمل كثيراً في

إعداد الطعام، فالطبيب يقول إنني أعاني من تسمم بطيء. والواقع إنني كنت منذ ثلاثة أيام مريضة جداً.

أشكرك على هدية الشوكولاتة التي بعثتها إليّ. ومجملاً أنا الآن بخير ويقول بيمبو إنني أتقدم كثيراً في رياضة التنس. تحياتي إليك.

فسألها ساترويت بغتة: هل بعثت إليها حقاً هدية من الشوكولاتة؟

- لا وهذا ما يثير دهشتي من خطابها. لا شك أن شخصاً ما قد بعث إليها هذه الهدية.

فأومأ ساترويت برأسه وهو يربط في ذهنه بين الشوكولاتة المرسلة من شخص مجهول وبين التسمم البطيء الذي عانت منه الليدي سترانلي وظنت أن طعام الفندق هو السبب. وهنا أقبلت فتاة طويلة خمرية اللون من غرفة الجلوس وانضمت إليهما، فعرف ساترويت حين قدمتها مارجريت إليه أنها صديقتها مارسيا كين، وقد نظرت إليه بشيء من الدعابة والتهكم وقالت بصوت ممطوط: هل جئت للإيقاع بشبح مارجريت الأليف؟ إننا جميعاً مهتمون بأمر هذا الشبح. آه، ها هو ذا رولي.

توقفت أمام القصر سيارة هبط منها شاب طويل ذهبي الشعر كثير الحركات، وهتف بمارجريت قائلاً: مرحباً مارجريت، مرحباً مارسيا، لقد جئت إليكما بالمدد لمقاومة الشبح.

ثم استدار إلى امرأتين كانتا تدخلان معه القاعة وتابع

يقول: أرجو أن تنجحا في هذه المقاومة الليلة.

فعرف ساترويت أن إحداهما هي السيدة كاسون التي حدثته مارجريت عنها منذ لحظات. وقالت هذه السيدة وهي تبتسم: اغفري لي يا آنسة مارجريت، فقد أصر السيد فافوزوار أن نجرب استخدام الأرواح لطرد هذا الشبح، ولهذا جاءت معي السيدة لويد الوسيطة الروحية.

انحنت السيدة لويد تحية للجميع، وكانت شابة من النوع العادي تكثر من وضع المساحيق على وجهها، وكانت تتزين بقلادة من أحجار القمر وعدد من الخواتم. ولاح على الآنسة مارجريت بوضوح أنها لم تبتهج لحضور السيدة لويد هذه، وإنما ألقت نظرة غاضبة على رولي فافوزوار الذي لم يبد أنه شعر بارتكاب أي خطأ، وأخيراً قالت: طعام الغداء معد، هلم إليه.

لم تتناول الوسيطة الروحية غير الفاكهة أثناء وجبة الغداء، وقبيل الفراغ من تناول الطعام ألقت برأسها إلى مسند المقعد وقالت وهي تتشمم الجو: أشعر أن في هذا القصر شيئاً ليس كما ينبغي.

وتمتمت السيدة كاسون في ابتهاج: أليس هذا رائعاً يا عزيزتي مارجريت؟

وعقدت جلسة تحضير الأرواح في غرفة المكتبة، وبعد اتخاذ الترتيبات الدقيقة لعقد الجلسة أعلنت الوسيطة الروحية أنها مستعدة للبدء، ثم قالت: إننا هنا ستة أشخاص، يحسن أن نكون سبعة.

فاقترح رولي إحضار أحد الخدم، لكن مارجريت طلبت إحضار الوصيفة كلايتون، وهنا لاحظ ساترويت أمارات الاستياء على وجه الشاب الذي قال: لكن لماذا كلايتون بالذات؟

فقالت مارجريت ببطء: أنت لا تحب كلايتون.

- الواقع أنها هي التي لا تحبني. وعلى كل حال أنا لا أعارض في حضورها.

تم عقد الجلسة، وأسدلت الستائر الكثيفة. وبعد برهة من الصمت سمع الجميع نقرات متتابعة، وإذا بروح هندي أحمر تتحدث عن طريق الوسيطة: المحارب الهندي يحييكم أيها السادة والسيدات. هنا بجانبي روح تريد أن تتحدث في لهفة، تريد أن تبلغ رسالة للآنسة مارجريت.

وبعد برهة من الصمت سمع الجميع صوتاً نسائياً ناعماً يقول: هل مارجريت موجودة؟

فقال رولي فافوزوار: نعم، من التي تتكلم؟

- إنها خالتها بياتريس.

وهنا بدأ الاهتمام الشديد على وجه السيد ساترويت وهو يصيخ السمع. فعاد الصوت النسائي الخافت الناعم يقول: أنا بياتريس التي غرقت مع الباخرة يوراليا، ولديّ رسالة يجب أن أبلغها لابنة أختي، الآنسة مارجريت: "أعيدي ما ليس لك لأصحابه".

فقالت مارجريت في تخاذل واستسلام: لا أفهم شيئاً، هل أنتِ حقاً خالتي بياتريس؟

فأسرعت السيدة كاسون تقول محذرة: طبعاً هي، لا ينبغي أن ترتابي في شخصيات الأرواح فإنهم لا يحبون هذا.

وبغتة ومضت في ذهن السيد ساترويت فكرة لخطة جعلته يقول: هل تذكرين السيد بوتاكيتي؟

وسرعان ما سمع ضحكة خفيفة أعقبتها هذه الكلمات: آه، المسكين بوتاكيتي!

فذهل السيد ساترويت، لأن معنى كلمة بوتاكيتي هو «القارب المقلوب». وكان هو وباربارا وبياتريس يقيمون في نفس المصيف في برايتون منذ أربعين عاماً، وقد حدث أن صديقاً إيطالياً شاباً خرج إلى البحر في زورق صغير انقلب به. وقد أطلق عليه الجميع بعد ذلك اسم «بوتاكيتي»، ولم يكن في الغرفة أحد يعرف هذه الحادثة التي مضى عليها أربعون عاماً. ومعنى هذا أن الروح نجحت في الاختيار.

وتململت الوسيطة في مجلسها وغمغمت بكلمات غامضة، وهنا قالت السيدة كاسون: هذا يكفي الآن، إن الوسيطة الروحية توشك أن تفيق.

وسرعان ما انسكب ضوء النهار مرة أخرى في قاعة المكتبة حيث كان الجميع جالسين، وحيث ظهر بوضوح أن اثنين منهم قد شعرا بالخوف الشديد. ورأى السيد ساترويت على وجه مارجريت الشاحب أمارات القلق والاضطراب،

فلما انفرد بها في غرفة خاصة قال لها: أريد أن ألقي عليك سؤالاً أو اثنين يا آنسة مارجريت. إذا توفيت أنت ووالدتك فمن الذي يرث اللقب والأملاك كلها؟

- رولي فافوزوار لأنه ابن عم أمي مباشرة.

- فأومأ برأسه ثم قال: إنه يتردد عليك كثيراً هذا الشتاء، فهل هو يحبك؟

- لقد عرض عليّ الزواج منذ ثلاثة أسابيع، لكني رفضت.

- أرجو أن تغفري لي فضولي إذا قلت: هل تحبين أحداً آخر؟

فاضطرم وجهها خجلاً ثم قالت: سوف أتزوج نويل بارتون الكاتب. إن أمي تعارضني في هذا، لكن ما عيب نويل بارتون؟ إنه شاب رزين رياضي لا مثيل له في ركوب الخيل.

وفي تلك اللحظة أقبل أحد الخدم يحمل برقية، فلما فضتها هتفت قائلة: عجباً! إن أمي سوف تصل غداً.

وهنا قال ساترويت: في هذه الحالة لم يعد لبقائي أية فائدة، فسوف أعود اليوم إلى لندن.

وأحس ساترويت وهو في طريقه إلى لندن أن عبئاً ثقيلاً قد رُفع عن كاهله، ذلك أن عودة الليدي سترانلي قد أعفته من مسؤوليته تجاه الابنة مارجريت. لكنه في قرارة نفسه كان يدرك أن شيئاً ما سوف يحدث في القصر، وقد حدث ما كان يخشاه.

ففي ذات صباح فوجئ بخبر منشور في صحيفة الديلي

ميجافون مؤداه أن الليدي سترانلي قد وُجدت ميتة في البانيو بحمامها، وأن الفحص الطبي أثبت أن وفاتها نشأت من الاختناق بالغرق، وأن المرجح أنها أغمي عليها أثناء الاستحمام فانزلق جسمها في البانيو حتى أصبح رأسها تحت سطح الماء فغرقت.

لكن السيد ساترويت لم يقتنع بهذا التعليل، ومن ثم انطلق بسيارته في الطريق إلى إقليم ويلشير. لكنه لم يمضِ فوراً إلى قصر أبوت ميد وإنما عرج على فندق بيلز آند موتلي، حيث وجد السيد كوين مقيماً به كما وعده.

وبعد أن تصافحا بحرارة قال السيد ساترويت في انفعال: إنني محتاج إلى معونتك، فأنا أشعر في أعماق نفسي بأن مارجريت جيل معرضة لخطر شديد بعد موت أمها، وهي فتاة طيبة ومستقيمة ويجب درء الخطر عنها.

- يحسن أن تخبرني بالموضوع كله.

أخبره ساترويت بالقصة كلها، فقال السيد كوين: عليك أن تكشف الغموض الذي يكتنف هذا الموضوع، فأنت الذي تعرف المقيمين في هذا القصر.

- نعم، لقد عرفت الشقيقتين بياتريس وبربارا منذ أربعين عاماً، ولا أنسى الأيام التي سعدنا فيها معاً في مصيف برايتون والاسم الذي أطلقناه على ذلك الصديق الإيطالي بوتاكيتي. بل أذكر وصيفة شابة تدعى أليس، جميلة عذبة كانت معهما، وقد قبّلتها ذات مرة في دهليز الفندق وكادت إحدى خادمات

الفندق أن تضبطنا. آه، ما أجمل أيام الشباب! وتوقف بغتة ثم تنهد قائلاً: كأنك لن تستطيع مساعدتي؟

- لو أنني كنت في موضعك لذهبت إلى قصر أبوت ميد الآن.

- أنا ذاهب فعلاً، ألا تأتي معي؟

- لا، إن لديّ مهمة خاصة يجب أن أقوم بها هنا.

* * *

في «أبوت ميد» جلس مع مارجريت في غرفة مكتبتها. وكانت عندئذٍ مشغولة بشيء ما، فلما رأته سرت قائلة: أحسنت بالحضور يا سيد ساترويت، فالواقع أنني غير مطمئنة إلى ما حدث لأمي. إن رأيي الخاص هو أن شخصاً ما قد ضغط على رأسها تحت سطح الماء حتى غرقت وأن الذي قتلها سوف يقتلني أيضاً، ولهذا فأنا الآن أكتب وصيتي.

ثم أشارت إلى الورقة المكتوبة أمامها وهي تقول: لقد رحل رولي فافوزوار ومارسيا كين، وإن اللقب وجزءاً كبيراً من ممتلكاتي ستكون من نصيب رولي بعد وفاتي، ولكنني أمتلك أموالاً ضخمة ورثتها عن أبي وسوف أوصي بهذه الأموال كلها إلى حبيبي نويل. وأرجو أن تشهد على وصيتي هذه. أما الشاهدة الأولى فهي وصيفتي كلايتون، وهذا هو توقيعها.

أمسك بالقلم ليوقع... وبغتة قرأ اسم كلايتون كاملاً، أليس كلايتون! فتوقف وقد اعترته الدهشة وعادت به الذاكرة

إلى الوراء أربعين عاماً، إلى مصيف برايتون وإلى الوصيفة الشابة الحلوة أليس التي قبّلها ذات مرة، والتي كان معجباً أشد الإعجاب بعينيها العسليتين.

وبغتة أدرك كل شيء، ولبث مستغرقاً في أفكاره حتى تنبه على صوت مارجريت وهي تقول: ماذا بك يا سيد ساترويت؟

- لا شيء، لا شيء. ولكنني عرفت الآن كل شيء. يجب أن تعدي نفسك للمفاجأة. إن السيدة الموجودة هنا باسم الوصيفة أليس كلايتون ليست هي كلايتون أبداً، فإن كلايتون الحقيقية قد ماتت غرقاً في حادث الباخرة يوراليا.

حملقت مارجريت في وجهه ثم تمتمت في ذهول: إذن من تكون كلايتون الموجودة هنا؟

- أنا واثق الآن تماماً أنها... أنها خالتك بياتريس، الأخت الكبرى لوالدتك! هل تذكرين قولك لي إنها أصيبت في الحادثة بوقوع قضيب حديدي على رأسها؟ أعتقد أن هذه الإصابة قد أفقدتها الذاكرة تماماً، وهنا رأت والدتك الفرصة سانحة فقررت أن...

- أن تظفر باللقب والثروة، أليس هذا ما تعنيه؟ نعم، هذه طبيعة أمي، رحمها الله. لم يكن يعنيها شيء غير نفسها.

- كانت بياتريس هي الأخت الكبرى التي لها حق الوراثة بعد موت عمكم الكبير اللورد سترانلي، وكانت سترث كل شيء بينما لا ترث أمك شيئاً، ولهذا زعمت أن الفتاة الجريحة الفاقدة الرشد هي وصيفتها أليس كلايتون وليست أختها.

واستعادت الفتاة صوابها لكنها فقدت ذاكرتها فلم تعرف إلا أنها أليس كلايتون كما قالوا لها، ولكن مع مرور الزمن بدأت ذاكرتها تعود، ويبدو أن عودة الذاكرة كانت مصحوبة باضطراب في عقلها.

نظرت مارجريت في فزع قائلة: لهذا قتلت أمي ثم أرادت أن تقتلني؟

- هذا ما يبدو، فإن عقلها المضطرب جعلها تلجأ إلى هذه التصرفات الغامضة وإلى إفزاعك بالأصوات الخفية لكي تسترد ممتلكاتها الموروثة منك ومن أمك.

- ولكن... لكن كلايتون تبدو أكبر سناً جداً من أمي بينما لم يكن الفارق بينهما غير عامين فقط.

فابتسم ساترويت في إشفاق ثم قال: هذا ما يصنعه المال الكثير. لقد أبقت الثروة على جمال والدتك وكست مباهج الحياة وجهها بالنضارة والصبا، أما بياتريس... حسناً، هلم نصعد إليها.

وهناك، في غرفتها الخاصة، رأياها جالسة بلا حراك في مقعدها الوثير وبين يديها أشغال الإبرة، وكان وجهها جامداً شاحباً لا أثر لحياة فيه.

فلما فحصها السيد ساترويت قال في إشفاق: ماتت بالسكتة القلبية، وحسناً فعلت!

* * *

الطائر الكسير الجناح

كان السيد ساترويت في غرفة المكتبة الكبيرة بقصر أحد أصدقائه في الريف الإنجليزي، وكان بعض المدعوين الشبان في القصر يعقدون جلسة للتنويم المغناطيسي على سبيل التسلية، وكان أحدهم منوَّماً يجيب على الأسئلة ويبلّغ الرسائل الروحية إلى أصحابها. كان السيد ساترويت يرقب ما يجري في غير اهتمام شديد، فقد كان يفكر في العودة إلى لندن لقضاء فصل الشتاء، ولذلك اعتذر عن قبول دعوة مادج كيلي حين اتصلَت به هاتفياً منذ ساعة وطلبت منه أن ينضم إلى مدعوِّيها في قصر والدها ببلدة لايدل.

وفجأة تنبه من أفكاره على صوت الوسيط المنوَّم يقول: هذه رسالة إلى السيد ساترويت. هل السيد ساترويت موجود؟

- نعم.

- السيد كوين؟ أجل، السيد كوين يريد منه أن يذهب إلى لايدل، إلى مادج كيلي. انتهت الرسالة.

فنهض ساترويت مدهوشاً مذهولاً وانصرف من الغرفة،

ثم مضى فوراً إلى الهاتف حيث اتصل بمادج كيلي، فلما سمع صوتها قال: اسمعي يا عزيزتي مادج، لقد غيرتُ رأيي وقررتُ أن أقبل دعوتكِ الرقيقة. نعم، نعم، سوف أكون عندكِ في وقت العشاء.

ثم أعاد السماعة إلى مكانها وهو مضطرم الوجه بالإثارة والانفعال، وحدّث نفسه قائلاً: لقد اختار كوين، ذلك الرجل الخفي العجيب هارلي كوين، اختار هذه المرة الوسيط المغناطيسي ليبلغه هذه الرسالة، ومادام الأمر كذلك فلا بد أن أحداثاً خطيرة سوف تقع أو توشك أن تقع في قصر مادج كيلي ببلدة لايدل، ولا شك أن لي دوراً إيجابياً فيها، وإلا لما طلبَ مني أن أقبل الدعوة وأذهب فوراً.

وكان قصر لايدل كبيراً رحيب القاعات والأبهاء ويمتلكه السيد دافيد كيلي، وهو أحد الرجال الهادئين ذوي الشخصية الضعيفة، وهو لا يعدو أن يكون جزءاً من أثاثا البيت، ولكن شخصيته الضعيفة لا علاقة لها بعقله القوي؛ فقد وضع كتاباً في الرياضيات العليا لا يستطيع أن يفهمه تسعون بالمئة من القراء، إلا أنه -على عكس الرجال النوابغ- لا يدع عقله القوي يشعّ حوله بالنور والجاذبية، ولهذا كثيراً ما كان أهالي المنطقة يتندرون عليه بقولهم إنه الرجل الخفي، كما أن الخدم يتجاوزونه وهم يحملون الطعام إلى الضيوف، وكذلك الضيوف ينسون أن يلقوا عليه التحية عند وصولهم. أما ابنته مادج فكانت تختلف عنه كثيراً؛ فهي شابة في نحو الثلاثين من عمرها، طويلة القامة رائعة المظهر، موفورة الحيوية والنشاط سليمة الجسم جميلة إلى حد كبير، وكانت هي التي استقبلت

السيد ساترويت عند وصوله بقولها: كم أنا مسرورة لحضورك بعد أن اعتذرتَ أول مرة!

- يا إلهي! مادج يا عزيزتي، أنتِ تبدين في حالة طيبة.

- نعم، نعم، أنا في أحسن حال دائماً.

- أعرف هذا، ولكنني أرى أن هناك ما يجعل وجهكِ يشع بالسعادة والابتهاج، فهل حدث شيء يا عزيزتي؟ أعني شيئاً خاصاً؟

فاحمرّ وجهها خجلاً وضحكت قائلة: دائماً تصدُق في استنتاجاتكَ يا سيد ساترويت.

ثم أخذت يده بين يديها وأردفت قائلة: أجل يا سيد ساترويت يا عزيزي، لقد حدث شيء هام... وصل فارس الأحلام.

فضحك ساترويت وقال: إذن يجب أن أسألكِ مَن يكون هذا الفارس السعيد، وكل ما أرجوه أن يكون جديراً بالشرف الذي تسبغينه عليه.

- تأكد أننا سنسعد معاً؛ فنحن نحب نفس الأشياء، وهذا أمر مهم جداً، كما أن آراءنا متفقة في جوانب كثيرة، وكلٌ منا يعرف الكثير عن الآخر. والواقع أن هذا الحدث كان يختمر بيننا منذ أمد بعيد، ولا شك أن هذا يملأ النفس بالأمن والاطمئنان، أليس كذلك؟

- بلى، طبعاً، ولكن الإنسان عادة لا يستطيع أن يعرف الحقيقة الكاملة عن أي شخص آخر، ولا شك أن هذا جزء من جمال الحياة.

فضحكت مادج وهي تمضي به إلى الغرفة المخصصة له.

وكان السيد ساترويت قد تأخر عن موعد العشاء قليلاً لأنه لم يصحب معه تابعه الخاص، وكان يحب أن يرتب حاجياته بنفسه وبعناية خاصة، ومن ثَم وجد جميع المدعوين حول مائدة العشاء حين وصل إليها، وإذا به يسمع مادج تقول بلا كلفة: يا إلهي! أسرع يا سيد ساترويت فنحن نكاد نموت جوعاً، هلم نبدأ.

وكانت قد استقبلته مع سيدة طويلة القامة وخَطَ الشيب شعرها، وكانت قوية الشخصية رنانة الصوت واضحة النبرات.

- كيف حالكَ يا سيد ساترويت؟

جفل السيد ساترويت حين رأى السيد دافيد كيلي يحييه، فقال معتذراً: معذرة يا سيد كيلي، الواقع أنني لم أرك.

- لا عليك، فأنا لا يراني أحد عادة!

وأخذ الجميع يتبادلون الأحاديث والضحكات وهم يتناولون العشاء، وكان هوي يجلس بين مادج وبين فتاة سوداء الشعر قصيرة القامة عالية الضحكة قوية الإرادة كما يبدو من حديثها وصلابة ملامحها اسمها دوريس، وكانت في جملتها من الطراز الذي لا يميل إليه السيد ساترويت. وإلى جانب مادج من الناحية الأخرى جلس رجل في نحو الثلاثين من عمره، يبدو من الشبه الواضح بينه وبين السيدة ذات الشعر الأشيب أنه ابنها. وإلى جانبه جلسَت فتاة جعلَت السيد ساترويت يحبس أنفاسه من فرط الدهشة والعجب، فهو لم يدرِ كيف يصفها: لم تكن الجمال نفسه، بل كانت شيئاً آخر...

شيئاً أكثر غموضاً من الجمال!

كانت تُنصت إلى حديث السيد دافيد كيلي، والد مادج، وهي تميل برأسها جانباً. لقد كانت موجودة ولم تكن موجودة في وقت واحد (في رأي السيد ساترويت)، وقد كانت تبدو أنها أرهف كثيراً من الناحية المادية البشرية من جميع الجالسين حول المائدة البيضاوية، وحين رفعَت عينيها إلى ناحية السيد ساترويت والتقت بعينيه في نظرة دامَت دقيقة إذا هو يجد التعبير الملائم، فردّده لنفسه قائلاً: فاتنة... نعم؛ فهي موفورة السحر والفتنة، ولعل من يراها يحسبها إحدى هذه المخلوقات الرقيقة العذبة التي تحدثنا عنها الأساطير، ومجرد وجودها يجعل الجميع يبدون أكثر واقعية ومادية.

ولكنها في نفس الوقت، وبطريقة عجيبة غريبة، كانت تثير في نفسه العطف والرثاء، فقد كانت رقتها البالغة التي تجعلها لا تشبه البشر تعوقها عن الظهور بالمظهر الطبيعي، ووجد السيد ساترويت أنه يقول لنفسه: ما أشبهها بطائر مهيض الجناح!

ولما اطمأن إلى هذا التعبير تنبه لنفسه وتمنى لو أن الفتاة دوريس الجالسة بجانبه لم تلحظ ذهوله، ولكنه رآها مشغولة بالحديث إلى رجل بجانبها لم يلحظه السيد ساترويت من قبل، وأخيراً استدار هو إلى مادج وقال بصوت خافت: مَن هذه السيدة الجالسة بجوار والدك؟

- السيدة غراهام؟ لا، لا شك أنكَ تعني مابل. ألا تعرفها؟ مابل أنيسلي، هي من أسرة غلاديسلي، واحدة من أسرة غلاديسلي المنحوسة الطالع.

فدُهش لهذا التعبير، ولكنه تذكّر؛ فقد قتل شقيقٌ في هذه الأسرة نفسَه بالرصاص وغرقت أخت ومات ثالث في زلزال، فهي أسرة يطاردها النحس بشكل عجيب. ولا شك أن مابل هذه هي صغرى الإخوة والأخوات.

ومرة أخرى أفاق من أفكاره حين أحس بيد مادج تضغط على يده تحت المائدة ثم تهمس له في خفوت وهي تومئ برأسها نحو اليسار: هذا هو.

فأومأ السيد ساترويت برأسه سريعاً في فهم وإدراك. إذن فهذا هو الشاب غراهام الذي وقع عليه اختيار مادج. حسناً، لم يكن في مقدورها أن تختار أفضل منه من ناحية المظهر؛ فقد كان وسيماً لطيفاً طبيعياً في أحاديثه، ولا شك أنه سكون أنسب زوج لمادج.

ولما كانت مادج تتبع النظام القديم في آداب المائدة فقد تركَت السيدات ينصرفن أولاً من قاعة الطعام، ومن ثَم اقترب السيد ساترويت من الشاب غراهام وراح يتحدث معه، ورغم أنه تأكد من صدق حدسه عنه إلا أنه لاحظ يد الشاب وهي ترتعد حينما كان يرفع الكأس إلى شفتيه، كما لاحظ أنه شارد الذهن مشتت الفكر بعض الشيء، فقال ساترويت لنفسه: لا بد أن هناك ما يشغل تفكيره! وقد لا يكون بالأهمية التي يظنها، وعلى كل حال، تُرى ماذا يشغل باله بهذه الصورة؟

كان ساترويت قد اعتاد أن يتناول بعض أقراص الهضم عقب تناول الطعام، ولما كان قد نسي علبة الأقراص في غرفته بالطابق الأعلى فقد صعد إليها. وفي أثناء هبوطه ومروره في

الدهليز الطويل المؤدي إلى غرفة الجلوس تسمّر مكانه في منتصف الدهليز أمام باب غرفة كانت تُسمى غرفة الشُّرفة، وكان الباب مفتوحاً قليلاً وضوء القمر ينسكب في الغرفة من خلال نوافذها الشبكية ويرسم بخيوطه الفضية أشكالاً هندسية عجيبة، فرأى ساترويت على حافة النافذة سيدة جالسة مائلة الجسم قليلاً تداعب بأناملها أوتار قيثارة فتصدر نغمات عذبة حالمة، وصوتها الناعم الخافت يصاحب النغمات كأنه هديل الحمام، ، وكان ثوبها من الحرير الفاخر الأزرق اللون، وكان منفوشاً حتى بدا كأنه ريش طائر.

دخل الغرفة ببطء حتى اقترب منها ورأى وجهها ورأته. لم تُدهش ولم تجفل، فقال معتذراً: أرجو ألا أكون قد أزعجتكِ.

- أرجوك، اجلس.

فجلس بجانبها على مقعد من خشب الزان المصقول البرّاق، وبعد أن ترنمت بصوت ناعم قالت: هذه الليلة مشحونة بالفتنة والسحر. ألا ترى هذا؟

- بلى، فيها شيء كثير من السحر.

ثم قالت شارحة الموقف: لقد طلبوا مني أن آتي بقيثارتي من غرفتي لأعزف لهم، وبينما أنا أمر على هذه الغرفة سحرني ضوء القمر فأحسست برغبة شديدة في الانفراد بنفسي في الظلام وفي ضوء القمر.

فنهض ساترويت معتذراً وقال: إذن لا شك أنني أفسدتُ هذا الجو.

- لا، لا، لا تذهب. لقد زِدته سحراً.

ولما جلس استطردَت: الهدوء العجيب يغلب على هذه الليلة. وقد خرجتُ في غروب هذا اليوم إلى الغابة فالتقيت برجل طويل نحيل ملوح البشرة عجيب السمت، كأنه المهرج هارلي كوين تحت ضوء الشمس الغاربة المتسلل عبر أوراق الشجر.

فمال ساترويت إلى الأمام وهتف: آه!

- وأردتُ أن أتحدث معه، وقد بدا لي كأنني أعرفه من قبل، ولكنه اختفى بين الشجر.

- أظن أنني أعرفه.

- حقاً؟ إنه رجل عجيب، أليس كذلك؟

- بلى، إنه رجل عجيب جداً.

وساد الصمت برهة، وأراد ساترويت أن يقول شيئاً فلم يستطع إلا أن يتمتم قائلاً بارتباك: الإنسان عندما يشعر بالتعاسة يحب أحياناً أن ينفرد بنفسه.

فقاطعته قائلة: أجل، هذا حق، ولكنني أعتقد أن الأصح هو أنني أردتُ الانفراد بنفسي لأنني أشعر بالسعادة.

- أتشعرين بالسعادة إذن؟

- جداً، جداً.

كانت تتحدث بهدوء، ومع ذلك فقد أدرك ساترويت أنها حين تتحدث عن السعادة فإنما تعني بحديثها شيئاً آخر غير

الذي تعنيه فتاة مثل مادج مثلاً حين تتحدث عن السعادة. قال بحذر: أنا لم أكن أعرف.

– نعم، أنت لم تعرف بعد؛ فأنا لستُ سعيدة الآن، ولكنني سأغدو بعد أيام قليلة أسعد إنسانة في الدنيا، سأكون كالرجل الذي عاش سنوات في غابة مظلمة رهيبة زاخرة بالمخاطر والمهالك، وبعدما كاد يموت يأساً إذا به يجد نفسه خارج الغابة يُطلّ على مدينة الأحلام التي طالما هفا إليها وتمنى بلوغها، ولم يبقَ عليه إلا أن يخطو خطوة واحدة لتتحقق له كل أمانيه.

قال ساترويت: هناك أشياء كثيرة تبدو جميلة قبل أن نصل إليها، بل إن أقبح الأشياء في العالم قد تلوح جميلة ونحن ننظر إليها من بعيد ونتمنى الحصول عليها.

وتوقف ساترويت عن الحديث حين سمع وقع خطوات وراءه، فلما التفت رأى رجلاً ينمُّ وجهه عن الغباء والبرود، وكان هو نفس الرجل الذي لم يثر اهتمام ساترويت في أثناء العشاء. قال الرجل لمابل: هم في انتظارك يا مابل.

فنهضت مابل وقد تلاشت كل أمارات السعادة من وجهها وقالت بصوت بارد هادئ: أنا آتية يا جيرارد، كنتُ أتحدث فقط مع السيد ساترويت.

ثم انصرفت عن الغرفة، وتبعها ساترويت بعد أن ألقى نظرة سريعة على وجه زوجها جيرارد، وقد رأى عليه مزيجاً من اللهفة والحرمان واليأس. فقال لنفسه: يا للمسكين، يبدو أنه مسحور بزوجته ومحروم منها في نفس الوقت.

وفي غرفة الجلوس جلست مابل بين المدعوين جميعاً، ثم أخذت تغني على نغمات قيثارتها والجميع يرددون المقطع الأخير من غنائها، وبينما كان ساترويت يفكر في إحدى الأغنيات الأثيرة لديه إذا بمابل تقطع غناءها وتنظر إليه، ثم تبتسم وتبدأ في ترديد هذه الأغنية التي يفضلها، وهي: يا حمامتي الجميلة.

ثم انفضت الجلسة بعد ذلك، وقدَّمت مادج إلى الجميع القهوة بينما كان والدها دافيد كيلي يعبث بأصابعه في أوتار القيثارة محاولاً أن يلعب عليها في ذهول وشرود ذهن، ثم تبادل الجميع تحيات المساء واقتربوا من باب الغرفة للانصراف إلى مضاجعهم، وكانوا جميعاً يتحدثون في وقت واحد كالمعتاد، وأخيراً انصرف جيرارد أنيسلي زوج مابل تاركاً وراءه الآخرين.

وخارج غرفة الجلوس تبادل ساترويت تحية المساء مع السيدة غراهام والدة الشاب الذي تحبه مادج. وكان للطابق الأعلى درَجان: درَج قريب وآخر في نهاية الدهليز، فصعدت السيدة غراهام وابنها إلى غرفتيهما في الطابق الأعلى عن طريق الدرَج القريب، وهو نفس الدرَج الذي صعد عليه قبلهما جيرارد أنيسلي.

ثم قالت مادج لمابل: يحسن أن تأخذي قيثارتكِ من غرفة الجلوس يا مابل لأنك إذا لم تأخذيها الآن فربما تنسينها عند رحيلك غداً، لا سيما وأنكِ تنوين الرحيل في ساعة مبكرة.

وقالت الفتاة دوريس كولز وهي تمسك بذراع ساترويت:

هلمّ يا عزيزي، فقد حان وقت النوم.

وتناولت مادج ذراعه الأخرى وسار الثلاثة نحو الدرَج الذي في نهاية الممر وضحكات دوريس تجلجل في المكان كله، وفي نهاية الممر وقفوا ينتظرون دافيد كيلي الذي جاء وراءهم وهو يطفئ الأنوار الواحد بعد الآخر وهو في طريقه إليهم، وأخيراً صعد الأربعة إلى غرفهم.

* * *

في صباح اليوم التالي وبينما كان السيد ساترويت يتأهب للهبوط إلى طعام الفطور أقبلت إليه مادج كيلي بوجه شديد الامتقاع وقالت له وهي ترتعد بشدة: يا إلهي! سيد ساترويت... يا للفظاعة!

- ماذا حدث يا عزيزتي؟

- مابل، مابل أنيسلي.

- ماذا بها؟

- شنقت نفسها الليلة الماضية في باب غرفتها. يا إلهي!

ثم انهارت مادج باكية، فأخذ ساترويت يهدئ من روعها بكلمات قليلة مألوفة في مثل هذه المواقف، ثم أسرع بالهبوط إلى الطابق الأول حيث وجد السيد دافيد كيلي مضطرباً مرتبكاً يقول: لقد اتصلتُ بمركز الشرطة هاتفياً يا سيد ساترويت، ويبدو أنها ماتت، هكذا قال الطبيب الذي فرغ الآن من فحص جثتها. يا للفظاعة! لا شك أنها كانت شقية في حياتها إلى حد

اليأس، وإلا لما فعلت بنفسها هذا.

وتردد ساترويت برهة ثم أردف قائلاً: هل يمكن أن أراها؟

- يمكنك طبعاً... لقد نسيتُ أنك تهتم بمثل هذه الأحداث.

ثم صعد معه على الدرَج العريض، وهناك في أول الطابق الثاني كانت غرفة روجر غراهام، وفي مواجهتها غرفة والدته السيدة غراهام. وكان باب هذه الغرفة الثانية مفتوحاً قليلاً وتنساب منه سحابة خفيفة من الدخان، فخامرت الدهشة عقل السيد ساترويت؛ فما كان يظن أن السيدة غراهام سيدة تدخن في الصباح الباكر بمثل هذه الكثرة! ثم سارا معاً في الدهليز حتى وصلا إلى الباب قبل الأخير، وفتحه السيد دافيد كيلي فدخل وراءه السيد ساترويت، وكانت الغرفة كبيرة تدل على أنها غرفة رجل، وفي الجدار الأيسر منها باب أوسط يفضي إلى غرفة مجاورة، ومن أعلى الباب الثاني لهذه الغرفة كانت تتدلى قطعة من الحبل، أما على الفراش فكانت ترقد مابل جثة هامدة رهيبة المنظر.

ووقف ساترويت برهة ينظر إلى المرأة التي كانت قبل ساعات قليلة تنبض بالحياة وبالسحر، وكانت لا تزال ترتدي ثوبها الحريري. وأخيراً نظر إلى الباب وإلى قطعة الحبل المدلاّة منه، ثم انتقل بنظراته إلى الباب الأوسط وقال لدافيد كيلي مشيراً إليه: هل كان هذا الباب الأوسط مفتوحاً؟

- نعم، هكذا قالت الخادمة.

- ألم يسمع أنيسلي، زوجها، شيئاً وهو نائم في هذه الغرفة المجاورة؟

- يقول إنه لم يسمع شيئاً.

- هذا عجيب! أين هو؟

- أنيسلي؟ مع الطبيب في الطابق الأول.

ولما هبطا إلى الطابق الأول وجدا المفتش ونكفيلد (الذي يعرفه ساترويت) في طريقه مع الطبيب إلى غرفة المرأة المتوفاة، وبعد لحظات عاد المفتش وطلب من الجميع أن يجتمعوا به في غرفة الجلوس. وكانت دوريس كولز تمسح الدموع من عينيها وهي تبدو خائفة، وبدت مادج كيلي متمالكة لأعصابها كعادتها، وكذلك كانت السيدة غراهام رزينة هادئة، بعكس ابنها روجر الذي بدا مضطرباً أشد الاضطراب، أما السيد دافيد كيلي فكان لا يكاد يحس به أحد كالمعتاد. وقد جلس الزوج الحزين بمفرده في جانب من الغرفة، تطل من عينيه نظرات ذاهلة شاردة كأنه لا يصدق ما حدث.

ورغم ما كان يبدو على السيد ساترويت من هدوء ظاهري إلا أنه كان شديد الانفعال موفور الحماسة للدور الذي سيقوم به في هذه المأساة، ثم أقبل المفتش يتبعه الدكتور موريس فأغلق باب الغرفة وجلس. وبعد أن تنحنح تحدث بكلمات قليلة مناسبة ثم قال: والآن سوف أبدأ بالحديث مع السيد أنيسلي بصفته زوج المتوفاة. أرجو يا سيد أنيسلي أن تخبرني، هل سبق أن سمعتَ زوجتكَ تهدد بالانتحار؟

فتح ساترويت شفتيه رغماً عنه، ولكنه أسرع وزمّهما قائلاً لنفسه: لا زال في الوقت متسع للحديث فيما بعد.

وقال أنيسلي بصوت متردد جعل الجميع يركِّزون أنظارهم عليه: لا، لم أسمعها أبداً تهدد بالانتحار.

- هل كنتَ تعرف أنها كانت شقية في حياتها لسبب ما؟

- لا، لم أكن أعرف شيئاً من هذا.

- ألم تحدثك عن شعور مفاجئ بالانقباض أو توتر الأعصاب مثلاً؟

- أبداً، أبداً.

- هل يمكن أن تصف لي بإيجاز ما حدث ليلة أمس؟

- لقد ذهبنا جميعاً إلى غرفِنا لننام، وقد استغرقتُ في النوم فلم أسمع شيئاً أو أشعر بشيء، ولم أستيقظ إلا على صُراخ الخادمة في الصباح، فهرعت إلى الغرفة المجاورة عن طريق الباب الأوسط فوجدت زوجتي... وجدتها...

فأومأ المفتش برأسه وقال: أجل، أجل، لا داعي للاستطراد في الحديث عما رأيت. ولكن أين رأيتَ زوجتك آخر مرة ليلة أمس؟

- هنا، في هذه الغرفة.

- هنا؟

- نعم، فقد كنتُ أول من انصرف منها، وصعدتُ فوراً إلى غرفتي تاركاً الجميع يتبادلون الحديث قُبيل ذهابهم إلى غرفهم.

- ألم ترَ زوجتك بعد ذلك؟ ألم تتبادل معها تحية المساء كالمعتاد عندما وصلَت إلى فراشها؟

- كنتُ نائماً عندما وصلَت كما قلت.

- ولكنها تبعتك فوراً، أليس كذلك يا سيد كيلي؟

ونظر إلى دافيد كيلي الذي أومأ برأسه، ولكن أنيسلي قال بإصرار: لم تكن قد عادت إلى غرفتها، رغم مرور نصف ساعة من وصولي إلى غرفتي.

فالتفت المفتش إلى السيدة غراهام وقال: هل دخلَت غرفتكِ لتتبادل معكِ الحديث يا سيدة غراهام؟

وخُيل إلى ساترويت أن السيدة غراهام ترددت قليلاً قبل أن تقول بثبات: لا؛ فقد أتيت إلى غرفتي وأغلقتُ الباب من الداخل ولم أسمع شيئاً.

ثم عاد المفتش يسأل أنيسلي قائلاً: وأنت يا سيدي، تقول إنك لم ترَ أو تسمع شيئاً. ألم يكن الباب الأوسط مفتوحاً؟

- أظن ذلك، ولكن كان في مقدور زوجتي أن تدخل غرفتها من الباب الآخر المؤدي إلى الدهليز مباشرة.

- وحتى لو أنها دخلَت من هذا الباب فلا بد أنكَ سمعتَ أصواتاً معينة مثل حشرجة الاختناق أو الاحتضار أو الألم أو اصطدام كعبيها في الباب.

- لا، لم أسمع شيئاً.

وهنا لم يستطع السيد ساترويت أن يكبح جماح لسانه فقال: معذرة يا سيدي المفتش، أنت تسير في طريق خاطئ؛ فمابل أنيسلي لم تنتحر وإنما قُتلت... أنا واثق من هذا!

فخيم الصمت الرهيب على الجميع برهة، وإذا بالمفتش يقول: ما الذي يدفعك إلى هذه الثقة؟

- شعوري الخاص، وهو شعور قوي.

- ولكنني أعتقد أنه لا بد أن يكون هناك سبب أقوى من مجرد الشعور.

فقال ساترويت لنفسه: طبعاً، هناك سببٌ أقوى، وهي رسالة كوين الخفية، ولكنني لا أستطيع أن أقول هذا للمفتش.

وبصوت مسموع قال: في الليلة الماضية عندما كنتُ أتحدث معها قالت لي إنها سعيدة، سعيدة جداً جداً، وقالت إنها سوف تغدو بعد أيام قليلة أسعد امرأة في الدنيا. فكيف يتفق هذا مع الانتحار؟

ثم أردف قائلاً بصوت الرجل المنتصر: ثم إنها عادت إلى غرفة الجلوس لتأتي بقيثارتها حتى لا تنساها عندما ترحل عن القصر في ساعة مبكرة من الصباح، فهل هذا سلوك امرأة تنوي الانتحار في نفس الليلة؟

فقال المفتش موافقاً: لا، طبعاً لا.

ثم استدار إلى دافيد كيلي وقال له: هل أخذَت معها قيثارتها إلى غرفة نومها؟

ففكر دافيد كيلي برهة ثم قال: نعم؛ فقد صعدت الدرَج وهي تحملها. أنا أعتقد أنني رأيتُها في يدها وهي تنعطف في منحنى الدرَج قبل أن أطفئ الأنوار.

فهتفَت مادج قائلة وهي تشير إلى مائدة قريبة: عجباً! ولكن القيثارة موجودة هنا في هذه الغرفة، على هذه المائدة.

فقال المفتش وهو يخطو بسرعة ويضغط على جرس الخدم: هذا غريب!

ولما حضر أحد الخدم طلب منه استدعاء الخادمة المخصصة لترتيب الغرف في الصباح. وكانت الخادمة حين أقبلت واثقة من إجاباتها؛ فقد قالت: كانت القيثارة أول شيء رأيته في هذه الغرفة عندما جئتُ لترتيبها في الصباح.

وصرفها المفتش ونكفيلد ثم قال وهو يلوي شفيته: أحب أن أتحدث مع السيد ساترويت على انفراد. أرجو من الجميع الانصراف الآن، على ألاّ يغادر القصرَ أحدٌ.

قال ساترويت متململاً بعد أن انصرف الجميع وأغلقوا وراءهم الباب: أنا واثق تماماً يا سيدي المفتش أن خيوط القضية قد أصبحَت كلها بين أصابعك. والواقع أنني أحسست بأن في الأمر جريمة، وإحساسي من هذه الناحية قوي.

- أنت على حق يا سيد ساترويت؛ فهذه السيدة لم تنتحر وإنما قُتلت.

فقال ساترويت مدهوشاً: أكنتَ تعرف هذا؟

فأجاب المفتش قائلاً وهو ينظر إلى الدكتور موريس الذي ظل جالساً في هدوء: هناك بعض الظواهر التي أثارت شكوك الدكتور موريس، فبعد الفحص الدقيق ثبت لنا أن الحبل الذي وجدناه حول عنقها لم يكن نفس الحبل الذي اختنقت به. لقد اختنقت بحبل أقل سمكاً بكثير، حبل رفيع جداً يشبه السلك لأنه غاص في لحم العنق، وبعد أن تم خنقها عُلّق عنقها بالحبل الآخر المعلق بباب غرفتها كي يبدو الأمر كأنه حادث انتحار.

- ولكن مَن...؟

- هذه هي المشكلة. من القاتل؟ ما رأيك في الزوج الذي ينام في الغرفة المجاورة، والذي لا يتبادل مع زوجته تحية المساء، والذي لم يسمع شيئاً؟ أعتقد أن الأمر واضح بالنسبة إليه، ويحسن أن نعرف كيف كانت العلاقة بينه وبين المجني عليها، فهل يمكن أن تساعدنا في هذا الأمر يا سيد ساترويت؟

فشد ساترويت قامته وقال محتجاً: أرجو يا سيدي المفتش أن تعفيني من...

- ليست هذه أول جريمة غامضة تساهم في كشف أسرارها يا سيد ساترويت؛ فأنت موهوب في هذه الناحية.

- نعم، هذه حقيقة. هو موهوب في هذه الناحية.

فقال ساترويت بابتسام: سأبذل جهدي يا سيدي المفتش.

هل كان جيرارد أنيسلي هو قاتل زوجته حقاً؟ وتذكّر ساترويت النظرة البائسة التي رآها تطل من عينيه في الليلة

الماضية. لقد كان يحبها وكان يشقى بهذا الحب، والشقاء في الحب يدفع المحب إلى أفعال عجيبة شاذة أحياناً. ولكن هناك شيئاً آخر، حقيقة أخرى... لقد تحدثَت مابل عن نفسها كإنسانة توشك أن تخرج من غياهب غابة مظلمة إلى نور مدينة الأحلام، وكانت تتوقع السعادة، سعادة من نوع كله المتعة واللذة والسرور العميق المركز. فإذا كان جيرارد أنيسلي قد صدق في قوله أن زوجته لم تأتِ إلى غرفتها حتى بعد مرور نصف ساعة من وصوله هو إلى غرفته... ولكن دافيد كيلي قال إنه رآها تصعد إلى الطابق الثاني عقب انصراف الجميع من غرفة الجلوس. في هذا الطابق الثاني غرفتان يقيم فيهما مدعوان آخران: هما السيدة غراهام، وابنها روجر غراهام، وقد أنكرت السيدة غراهام أن مابل دخلَت إلى غرفتها للحديث معها، إذن لم يبقَ غير روجر. ولكن روجر يحب مادج كيلي وسوف يعلنان خطبتهما قريباً.

وفجأة تذكر السيد ساترويت الدخان الذي رآه ينساب من غرفة السيدة غراهام وعجب من أمره، ثم تصرف بالغريزة والحافز المفاجئ فأسرع إلى غرفة السيدة غراهام فوجدها خالية، فأغلق الباب بالمفتاح من الداخل، ثم أدار نظره في أنحاء الغرفة، وحانت منه نظرة إلى قاعدة المدفأة حيث وجد كومة الرماد التي تدل على أن أوراقاً كثيرة كانت تُحرق فيها، فلم ييأس وإنما راح يعبث في الرماد حتى عثر على قصاصات لم يتم احتراقها، فتناولها برفق وقرأ فيها هذه العبارات المتناثرة: "لا يمكن أن تصبح الحياة أجمل وأروع مما نحن فيه يا عزيزي روجر... أنا لم أكن أعرف، فكل حياتي كانت

كابوساً مرعباً حتى عرفتكَ يا روجر... أظن أن جيرارد عرف كل شيء، أنا آسفة، فماذا يمكنني أن أفعل؟ ليس في الدنيا شيء حقيقي غيرك، وسوف نسعد بالحياة معاً قريباً... ماذا تنوي أن تقول له في قصر لايدل يا روجر؟ أنت تكتب بطريقة غامضة، ولكنني لست خائفة...".

فوضع السيد ساترويت هذه القصاصات بعناية في مظروف أخذه من منضدة الكتابة، ثم خطا نحو الباب وفتحه ليجد نفسه وجهاً لوجه مع السيدة غراهام. وكان يعرف في مثل هذه المواقف الحرجة أن الهجوم خير وسيلة للدفاع، ومن ثَم قال: كنتُ أفتش غرفتكِ يا سيدة غراهام، وقد عثرتُ على مجموعة من الرسائل لم تحترق تماماً.

فلاح الفزع في وجهها برهة خاطفة ولكنها لم تلبث أن استردت هدوءها، فعاد ساترويت يقول: رسائل غرامية من السيدة أنيسلي إلى ابنك روجر.

فترددت برهة ثم قالت: هذه حقيقة لا أستطيع إنكارها، ولهذا رأيتُ أن من الأفضل إحراقها.

- لماذا؟

- لأن ابني سيتزوج قريباً، وهذه الرسائل ستثير فضائح لا داعي لها إذا عُرف أمرها بعد انتحار المسكينة.

- كان يمكن أن يتولى ابنك إحراقها؟

ولما لم تجب استغلّ ساترويت هذه الفرصة وأردف قائلاً: لقد عثرتِ على هذه الرسائل في غرفته فحملتِها إلى غرفتكِ

لإحراقها، فلماذا يا سيدة غراهام؟ هل كنتِ خائفة من شيء؟

- أنا لم أتعود أن أخاف شيئاً يا سيد ساترويت.

- أجل، ولكن هذه حالة خاصة تدعو إلى الاضطراب والخوف... إنها حالة قتل.

- قتل؟!

ورأى مدى امتقاع وجهها فأسرع يقول: لقد سمعتِ السيدة أنيسلي وهي تدخل غرفة ابنكِ الليلة الماضية، ويبدو أنه أخبرها عن غرامه بمادج كيلي ورغبته في الزواج بها، فثارت عليه وحدثت بينهما مشادة عنيفة.

- هذا كله كذب.

كان قائل هذه الجملة هو روجر غراهام بعد أن وصل إليهما دون أن يشعر به أحدهما، ثم أردف قائلاً: حسناً يا أماه، لا تقلقي. تفضل إلى غرفتي يا سيد ساترويت.

فتبع ساترويت الشاب إلى غرفته، ولم تحاول الأم أن تمضي وراءهما. أغلق روجر باب الغرفة من الداخل ثم قال: اسمع يا سيد ساترويت، أنت تظن أنني قتلتُ مابل، تظن أنني قتلتُها هنا ثم حملتُها بعد ذلك وعلقتها في باب غرفتها عندما استغرق الجميع في النوم، أليس كذلك؟

فحملق ساترويت إلى وجهه بدهشة ثم قال: لا، أنا لا أظن هذا.

- حمداً لله لأنني لم أكن لأستطيع قتل مابل؛ فقد كنتُ

أحبها، أو هكذا توهمتُ. أنا في الواقع لا أدري هل كان حباً أم وهماً، ولكنني أميل جداً إلى مادج، وكنت دائماً أميل إليها، وهي خير زوجة حقاً، أما مابل فكانت تختلف كثيراً، ولست أدري ماذا أقول. لقد سحرتني، وقد كنتُ أشعر بالخوف منها.

أومأ ساترويت برأسه، بينما استطرد روجر قائلاً: وأردتُ أن أضع نهاية لعلاقتي بمابل، وكنتُ أنوي أن أحدثها في هذا الأمر الليلة الماضية.

- ولكنكَ لم تفعل، أليس كذلك؟

- نعم، لم أفعل، وأقسم لك على هذا؛ فأنا لم أرها بعد أن تبادلتُ معها تحية المساء في الطابق الأول.

- أنا أصدقك.

ثم نهض وهو يؤكد لنفسه أن روجر ليس هو القاتل. لقد كان يودّ أن يفر منها لا أن يقتلها، فقد أدرك أخيراً أنه كان مسحوراً بها، ولكنه قرر أن يتحرر من ربقة هذا السحر وأن يلجأ إلى مرفأ أمين، إلى فتاة لطيفة هادئة متزنة مثل مادج.

ثم هبط ساترويت إلى غرفة الجلوس فوجدها خالية، ولكنه رأى قيثارة مابل موضوعة على النافذة، فتناولها وراح يداعب أوتارها في شرود ذهن. ورغم أنه لم يكن يجيد العزف على الآلات الوترية إلا أن أذنه المرهفة أدركَت وجود نغمة نشاز واضحة في الوتر الغليظ الأول، وعبثاً حاول أن يضبط هذا الوتر، ولكن دوريس أقبلت فجأة ونظرت إليه في عتاب وهي تقول: يا إلهي، هذه قيثارة مابل المسكينة!

فقدمها ساترويت إليها وقال: هل يمكن أن تضبطي لي هذا الوتر؟

- نعم، طبعاً.

ثم تناولتها منه، وما كادت تضغط على مفتاح ضبط الوتر حتى فوجئت به ينقطع، فهتفَت قائلة وهي تفحصه: عجباً! هذا ليس الوتر المفروض أن يوضع في هذا المكان؛ فهذا وتر من النوع «أ» وليس هذا موضعه، ولهذا انقطع حينما أردتُ أن أضبطه. ما أحمق بعض الناس!

- نعم، ما أشد حماقة بعض الناس حين يظنون أنهم عباقرة!

كان في نبرات صوته ما جعل دوريس تنظر إليه في عجب وتساؤل، ولكنه تناول الوتر المقطوع منها ومضى به إلى غرفة المكتبة حيث وجد السيد دافيد كيلي، فقال له وهو يقدمه إليه: تفضّل يا سيد كيلي.

فتناوله دافيد كيلي منه وقال: ما هذا؟

- وتر مقطوع. ماذا فعلتَ بالوتر الأصلي يا سيد كيلي؟

- الوتر الأصلي؟!

- نعم، الوتر الذي خنقتَ به مابل أنيسلي. لقد كنتَ بارعاً في ارتكاب هذه الجريمة، أليس كذلك؟ لقد ارتكبتَها بسرعة بالغة، في الوقت الذي كنتُ أمضي فيه مع دوريس مادج إلى الدرَج الآخر في نهاية الدهليز، أليس كذلك؟ لقد عادت مابل إلى غرفة الجلوس لتأخذ قيثارتها، وكنتَ أنت قد انتزعت

الوتر في أثناء مداعبتِك للأوتار بأصابعك ونحن ننصرف من الغرفة، فلما دخلت الغرفة فاجأتها من الخلف ولففت الوتر حول عنقها وخنقتها به، ولا شك أن حشرجتها ضاعت في رنين ضحكات دوريس ونحن في الدهليز، وبعد ذلك خرجتَ من الغرفة ورحتَ تطفئ الأنوار حتى انضممتَ إلينا. وفي سكون الليل عدتَ إلى غرفة الجلوس فحملت جثتها وعلقتها في باب غرفتها، ثم وضعتَ وتراً آخر في القيثارة، ولكنكَ لم تفطن إلى أنك وضعت وتراً مخالفاً للوتر الأصلي، وهذه هي الهفوة التي كشفَت أمرك.

ولما لم يجب دافيد كيلي بشيء، أردف ساترويت قائلاً: ولكن، لماذا فعلتَ هذا؟ لماذا؟

وفجأة أرسل دافيد كيلي ضحكة عالية جوفاء رهيبة الرنين جعلَت ساترويت يشعر بالغثيان، ثم قال: ما أبسط هذا الأمر! هذا هو السبب... وهناك سبب آخر، وهو أن الناس جميعاً كانوا لا يلاحظونني، كانوا يحسبون أنني كمٌ مُهمَل لا قيمة له، ولم يكن بينهم من يحاول أن يهتم بأمري أو يعرف ماذا أفعل، وقد أردتُ أن أسخر منكم جميعاً.

ومرة أخرى أرسل ضحكة رهيبة وهو يحملق إلى وجه ساترويت بعينين يطل منهما الجنون، وتنهد ساترويت بارتياح عندما رأى المفتش ونكفيلد يدخل الغرفة في تلك اللحظة.

* * *

آخر الدنيا

رغم ثرائه الواسع كان السيد ساترويت من أولئك الذين يحبون مصاحبة الكُبراء وذوي الألقاب الفخمة الضخمة أياً كانت عيوبهم، فلا عجب إذا أحس بالرضا والبهجة حين طَلبت منه الدوقة أوف ليث أن يصحبها في رحلة صيفية إلى جزيرة كورسيكا.

كانت سيدة في مثل سنه ترتدي عادة الملابس السوداء المرصّعة بمجموعة الجواهر الضخمة التي ورثتها عن آبائها وأجدادها، وكانت تثبّت تلك الجواهر في ملابسها كما كانت تفعل أمها عادةً، حتى إن بعض الظرفاء كانوا يتندرون عليها قائلين إنها تعودت أن تقف في وسط غرفتها وتترك خادمتها تقذف بالجواهر ذات المشابك عليها فتثبت كل قطعة كيفما اتفق.

وكانت الدوقة حريصة في إنفاق المال؛ فقد تطلب من أصدقائها أن يعيروها سياراتهم أو يدَعوها تركب معهم من مكان إلى آخر، كما تعودَت أن تشتري جميع حاجياتها من الأماكن التي يُسمَح فيها بالمساومة في الشراء، ولكنها، مع

هذا الحرص، كانت تتبرع بمبالغ طائلة للجمعيات الخيرية وتعامل مستأجري أملاكها بالعدل والحسنى.

ولما كانت دائمة الشكوى من ارتفاع مستوى المعيشة في شاطئ الريفيرا فقد قررَت أن تمضي فترة مع السيد ساترويت في جزيرة كورسيكا، حيث ينخفض مستوى المعيشة وحيث تكثر الأماكن الأثرية والسياحية الجديرة بالمشاهدة.

وفي بهو فندقٍ متواضع بميناء أجاكيو جلست الدوقة مع السيد ساترويت عقب وصولهما بحراً إلى الميناء. وبعد أن تناولا طعام فطور خفيف وشربا القهوة رفعت منظارها اليدوي إلى عينيها وطافت بنظراتها على الجالسين في البهو، ثم هتفت فجأة: عجباً! لن أكون الدوقة أوف ليث إذا لم تكن هذه هي نوامي كارلتون سميث.

وأشارت إلى فتاة كانت جالسة بمفردها إلى مائدة بجانب النافذة مرتدية ثوباً رخيصاً قاتم اللون ويبدو شعرها الأسود متهدلاً بغير عناية أو تصفيف، فسألها السيد ساترويت قائلاً وهو يتأمل الفتاة: الفنانة؟

– نعم، أو هكذا تقول عن نفسها؛ فأنا أعلم أنها تعيش في ركن عجيب من أركان العالم فقيرة معدومة، ولكنها مغرورة بالوراثة مثل جميع آل كارلتون سميث. لقد كانت أمها ابنة عمي مباشرة.

وبعد برهة من الصمت استطردت تقول عن نوامي: هي دائمة عدوّة نفسها؛ فقد عقدَت خطبتها إلى شاب بغيض

صعلوك يعمل بتأليف المسرحيات ونظْم الشعر وما إلى هذا من الكلام الفارغ، وطبعاً لم يجد من يشتري إنتاجه فسرق جواهر بعض الناس، ولكنهم قبضوا عليه، ولا أذكر كم سنة صدر الحكم بحبسه... أظنها خمسة أعوام. لا شك أنك تذكر هذه القضية، فقد كانت في الشتاء الماضي.

- لقد كنتُ في مصر في الشتاء الماضي؛ فبعد نوبة برد عنيف نصحني الأطباء جميعاً بتمضية الشتاء في مصر.

وعادت الدوقة تحدق النظر إلى وجه الفتاة بمنظارها من بعيد ثم قالت: يلوح لي أن هذه الفتاة في حالة ضنك شديد، وأنا لا أسمح بذلك.

ثم نهضت وسارت إلى مائدة الفتاة وتوقفت وربتت كتفها وقالت: نوامي، يبدو أنكِ لا تذكرينني؟

فوقفت الفتاة في تراخ وقالت: أنا أذكركِ يا دوقة؛ فقد رأيتكِ وأنتِ تدخلين الفندق، فخطر لي أنكِ ربما لن تعرفيني.

وكانت تتحدث بصوتٍ متراخ ممطوط، ولكن الدوقة تجاهلت هذه النبرات وقالت آمرة: عندما تفرغين من تناول طعامكِ تعالي إليّ في الشرفة.

فتثاءبت نوامي، وبعد لحظات انضمت إلى الدوقة والسيد ساترويت، وقد تهالكت في مقعدها بنفس الحركة المتراخية المستهترة. وهنا أُتيحت لساترويت فرصة تأمل وجهها، ثم قرر في النهاية أنه وجه أخطأه الجمال ولكنه ينم عن ذكاء وشقاء.

قالت لها الدوقة بنشاط: حسناً يا نوامي. ماذا تفعلين بنفسك؟

- يا إلهي! لا أدري. أشاهد الدنيا فقط.

- هل ما زلتِ ترسمين؟

- قليلاً.

- هل أستطيع أن أرى رسومك؟

فابتسمت نوامي في استهتار للهجة الآمرة التي تتحدث بها الدوقة، ولكنها غابت لحظات ثم عادت بمجموعة صغيرة من لوحاتها الحديثة وأخذت تعرضها على الدوقة وعلى السيد ساترويت وهي تقول للأولى: صارحيني برأيكِ فيها، ولو أنني أعرف هذا الرأي مقدماً.

فقالت الدوقة عن الصورة الأولى: أين أولها وأين آخرها؟ أنا لا أعرف إن كانت في وضع معتدل أو مقلوب!

وعن اللوحة الثانية قالت: ما أفظع هذا؟

وقال السيد ساترويت: هذه اللوحة تثير الرعدة في النفس.

فابتسمت الفتاة وقالت: هذا أبلغ ثناء عليها لأن هذا هو المقصود منها فعلاً.

وكانت اللوحة ترمز لمجموعة من الفواكه العَفِنة تعيث فيها الديدان فساداً، وكانت مرسومة ببراعة وإتقان وموهبة فنية جعلت ساترويت يقول: ما ثمن هذه اللوحة؟

- كل لوحة من هذه المجموعة ثمنها خمسة جنيهات، ويمكنك شراء ما يعجبك منها.

- أنا أريد هذه اللوحة بالذات.

- أحسنت الاختيار؛ فهي أفضلها جميعاً.

وكانت في هذه المرة تتحدث إليه بصوت ينم عن التقدير والاحترام بعد أن أدركَت مدى ما يتمتع به من ذوق فني، أما هو فقال: أؤكد لكِ أن هذه اللوحة ستساوي بعد سنوات معدودة ثروة كاملة إذا خطر لي أن أبيعها.

نظرت الفتاة إليه طويلاً، وقد بدا من نظراتها أن احترامها له قد تضاعف. وقالت الدوقة: لن يستطع أحد أن يقنعني أن هذه الطريقة في الرسم نوع من الفن بأي حال. حسناً، أنا سأمكث هنا بضعة أيام فقط وأحب أن أستمتع بمشاهد الجزيرة. إن لديك سيارة يا نوامي، أليس كذلك؟

- بلى، لديّ سيارة.

- عظيم جداً. غداً نقوم برحلة إلى الجبال في سيارتكِ.

- هي سيارة صغيرة ذات مقعدين فقط.

- أياً كانت، لا بد أن لها مقعداً صغيراً خلفياً يمكن للسيد ساترويت أن يجلس فيه.

فارتعد ساترويت وهو يتذكر طرق الجزيرة الجبلية الخطيرة، ولكن الفتاة أسرعت تقول: لكنها سيارة مستعمَلة قديمة لا يمكن أن تتحمل ثلاثة أشخاص في طريق جبلي صاعد. يمكنك

أن تستأجري سيارة من المدينة يا سيدتي الدوقة.

- أستأجِر سيارة؟ يا للعار! تُرى مَن ذلك السيد ذو الوجه الأصفر الجالس هناك والذي أقبل الآن في سيارة بأربعة مقاعد؟

- هذا هو السيد تومولينسون، قاض هندي متقاعد.

- هذا هو سر صُفرة بشرته، ولكن يبدو أنه إنسان لطيف مهذب. سوف أتحدث معه.

* * *

في المساء وجد ساترويت الدوقة في ثوب من الحرير الأسود المرصع بجميع جواهرها تتبادل الحديث في اهتمام مع صاحب السيارة ذات المقاعد الأربعة في بهو الفندق، وعندما لمحته أشارت إليه تدعوه قائلة: تعالَ يا سيد ساترويت، فالسيد تومولينسون يحدثني عن أعجب الأشياء، وفوق هذا قد تطوع ليصحبنا في رحلة جبلية غداً بسيارته.

فنظر ساترويت إليها في إعجاب شديد، بينما أردفت هي قائلة: هلمّ إلى طعام العشاء يا سيد ساترويت، ويمكن للسيد تومولينسون أن يجلس إلى مائدتنا ويستطرد في أحاديثه الممتعة عن عجائب الهند.

وأخيراً بعد العشاء وبعد انصراف السيد تومولينسون قالت الدوقة: هذا رجل لطيف مهذب.

- ويمتلك سيارة لطيفة مهذبة.

- يا خبيث!

وضربته بطرف مروحتها على يده مداعبة ثم أردفت قائلة: سوف تأتي نوامي أيضاً في سيارتها. هذه الفتاة تحتاج إلى من يأخذ بيدها ليخرجها من نطاق نفسها، فهي أنانية جداً لا تهتم بأحد ولا يهمها إلا نفسها.

- أنا أرى الأمر على النقيض؛ إذ يخيل لي أنها شديدة الاهتمام بشيء معين، ولكنها تقف عاجزة لا تدري ماذا تفعل، ولهذا فهي تسلك سلوك الإنسان اليائس.

- لا تكن أحمق يا ساترويت. دعك من الفتاة وأنصت إليّ بشأن ترتيبات رحلة الغد.

فأنصت ساترويت لأن الإنصات كان الطابع الواضح في حياته.

* * *

في صباح اليوم التالي بدؤوا الرحلة ومعهم طعام الغداء، وقد أخذت نوامي على عاتقها أن تكون الرائدة والمرشدة لأنها أمضت في الجزيرة بضعة أشهر، فذهب السيد ساترويت إليها وهي جالسة في سيارتها تنتظر وقال لها: هل أنتِ واثقة بأنكِ لا تستطيعين أن تسمحي لي بالركوب معكِ؟

- ستكون أكثر راحة في السيارة الأخرى ذات المقاعد الوثيرة القوية، أما سيارتي هذه فمن الخطر ركوبها في طريق جبلي وعر.

- ولكن إذا كنتِ ستركبينها فلماذا لا أركبها معك؟

فنظرت إليه بإمعان وقالت: ولماذا تركب معي؟

هل يقول لها لأنه يرى من تصرفاتها ومن إهمالها لنفسها ومن نظرات عينيها أنها تفكر في الانتحار، وأنها قد تنتهز فرصة هذه الرحلة لتنتحر بطريقة تبدو للجميع أنها مجرد حادث وقع بالقضاء والقدر؟ لا، هو لا يستطيع أن يصارحها بهذا لأنه قد يكون مخطئاً في تصوراته. ولما رأى أن الموقف مُحرج قال: حسناً، ربما تسمحين لي بالركوب معكِ في رحلة العودة.

وهنا أرسلت ضحكة عجيبة النبرات وقالت: أجل، أجل، في رحلة العودة، إذا شاء لنا القدر أن نعود.

ثم بدأت الرحلة فانطلقت سيارة نوامي في المقدمة سريعة كالطائر، وظلت السيارة الثانية تتبعها في الطريق الجبلي الصاعد دائماً، وكان الهواء يزداد برودة كلما أمعنوا في الصعود حتى أصبح يهبّ عليهم قاطعاً كحدّ السكين. وفجأة أوقفت نوامي السيارة ونظرت وراءها ثم قالت: لقد وصلنا إلى آخر الدنيا، وأعتقد أن الجو سوف يضطرب بعد قليل.

وهبط الجميع بالقرب من قرية في قمة الجبل مكونة من عشرة أكواخ حجرية في مدخلها لافتة مكتوب عليها «كوتي تشيافيري»، ولكن نوامي قالت: هذا هو اسمها الرسمي، ولكنها تُسمى قرية آخر الدنيا.

وسارت خطوات قليلة حتى انضم إليها ساترويت، ثم توقفت أمام حاجز جبلي ضخم وقالت: هذا هو نهاية الطريق الوحيد في القرية وليس بعده شيء، أي أننا الآن في بداية

ما لا تُعرف نهايته، فالإنسان في أي مكان في الدنيا يستطيع أن يختار الاتجاه الذي يواصل المسير فيه، يميناً أو يساراً أو أماماً، ولكن الإنسان في هذا الموضع لا يستطيع إلا أن يعود أدراجه، ولهذا سماه الأهالي آخر الدنيا.

وتنفس السيد ساترويت بعمق وقال: هذا مكان عجيب فعلاً، يمكن أن يحدث فيه أي شيء أو يلتقي المرء فيه بأي شخص.

وتوقف عن الحديث فجأة حين لمح رجلاً يجلس على صخرة ناتئة ينظر إلى ناحية البحر الذي يبدو بعيداً، ولم يكن أحدهما قد رآه من قبل في تلك المنطقة وكأنما هو انبثق فجأة من المناظر المحيطة بها. وقبل أن يقول السيد ساترويت شيئاً إذا بالرجل يستدير نحوه، فإذا هو يقول: عجباً! هذا هو السيد كوين. دعيني أقدم إليك السيد كوين يا آنسة كارلتون سميث، هو أعجب شخصية عرفتُها. أليس كذلك يا سيد كوين؟ أنت دائماً تظهر في الوقت المناسب.

ثم توقف فجأة، فقد شعر أنه يتحدث بعبارات لا معنى لها. وصافحت نوامي السيد كوين وقالت له: نحن هنا في نزهة جبلية، ولكن يبدو أننا سنموت جميعاً متجمدين من البرد والثلج.

قال السيد ساترويت وهو يرتعد: ربما نستطيع أن نجد مكاناً نحتمي به. الآنسة كارلتون سميث تُسمي هذا المكان آخر الدنيا.

- أجل، هذا اسم ينطبق عليه فعلاً. أهذه سيارتكِ يا آنسة كارلتون سميث؟

- نعم، هي كما ترى صغيرة وعتيقة.

- لا شك أن قيادتها تحتاج إلى براعة خاصة؛ فأقل خطأ في الانحراف أو في استجابة الكابح يؤدي إلى انقلابها في إحدى الهاويات.

ولما انضمّوا إلى الدوقة والقاضي الهندي قدم السيد ساترويت صديقه إليهما، ثم انفردَت به الآنسة كارلتون سميث وقالت له بحدة: مَن هذا الرجل؟

- أنا شخصياً لا أدري تماماً، فقد عرفتُه منذ أعوام، ونحن نلتقي مصادفة بين الحين والآخر وفي ظروف عجيبة.

- ولكنه من الذين يعرفون الأسرار التي تنطوي عليها النفوس. هذا ما يبدو بوضوح، فنظراته نفّاذة.

- نعم، فالإنسان لا يسعه إلا أن يخاف من نظراته يا آنسة كارلتون سميث.

وفي تلك اللحظة سقطت من الجو قطعة من الثلج على وجهه، ثم إذا بالجليد يتساقط في سرعة وغزارة جعلَت الجميع يرحبون باقتراح السيد كوين حين قال إنه يعرف كوخاً حجرياً في نهاية المنازل مخصصاً لإيواء السائحين الذين يفاجئهم الجو بتقلباته. وفي أثناء الطريق إليه قال: المعتاد أن يكون لدى السائح مؤونته من الطعام كما هو الشأن معكم، ولكن صاحبة الكوخ تقدم للضيوف القهوة نظير أجر بسيط.

وكان الكوخ مكوناً من غرفة متوسطة الحجم لها نافذة

صغيرة في جانب منها، وفي الجانب الآخر مدفأة ضخمة تشعّ منها حرارة النيران. وكان ثمة امرأة كورسيكية تغذي هذه النيران بحزم من الحطب الجاف. وفي نهاية الغرفة، أمام طاولة خشبية، كان ثلاثة أشخاص من السُّياح يحتمون أيضاً بالكوخ من الصقيع المنهمر. كانوا رجلين وسيدة، سيدة بدت كأنها دوقة حقيقية أو أنموذج للممثلة الأولى في مسرح عريق، طويلة القامة بلاتينية الشعر أنيقة الملابس رائعة السلوك، وكانت تعتمد بذقنها على يدها وتمسك بالأخرى شطيرة مستطيلة مستديرة، وعلى جانبها الأيسر جلس رجل ناصع بياض الوجه رمادي الشعر يرتدي ملابسه السوداء بأناقة بالغة ويضع على عينيه نظارة ذات إطار قرني، وعلى جانبها الأيسر جلس رجل صغير الجسم خفيف الظل أصلع الرأس لا يكاد يثير انتباه أحد.

ومرت لحظات من الحرج، ولكن الدوقة، الدوقة الأصلية، بدأت الهجوم بقولها وهي تتقدم لتجلس إلى الطاولة الخشبية: يا لها من عاصفة ثلجية رهيبة! لا شك أنها فاجأتكم مثلنا، ولكن كورسيكا جزيرة جميلة على أي حال. لقد وصلتُ إليها أمس.

ثم نهض الرجل الأنيق الطويل باحترام فجلست الدوقة في مقعده شاكرة، بينما قالت السيدة ذات الشعر البلاتيني: نحن هنا منذ أسبوع.

كتم ساترويت أنفاسه دهشة حين سمع السيدة وهي تنطق بهذه العبارة البسيطة. لقد كان في نبرات صوتها وفي طريقة

إلقائها ما جعل الكلمات تنبض بالحياة وبالسحر وبالجاذبية، كأنما هي لا تتحدث بلسانها فقط وإنما من صميم قلبها.

وأسرع ساترويت يقول للقاضي الهندي السيد تومللينسون: الرجل الأنيق الذي يرتدي النظارة مخرِج كما تعلم، واسمه السيد فايز.

- ماذا يخرج؟

- مسرحيات.

وفجأة قالت نومي كارلتون سميث بصوت حاد عنيف: الجو هنا خانق، سأخرج إلى الهواء الطلق رغم البرد والصقيع.

ولكن السيد كوين اعترض طريقها عند الباب وقال لها بهدوء وحزم: عودي إلى مكانك واجلسي.

وفوجئ السيد ساترويت بالفتاة تستجيب للأمر وتجلس إلى طرف الطاولة في معزل عن الآخرين، ثم تقدّم إلى المخرج فجلس أمامه وقال: لعلكَ لا تذكرني يا سيد فايز، اسمي ساترويت.

فمد السيد فايز يده وصافح ساترويت بقوة وقال: أجل، أجل يا عزيزي. مَن كان يظن أننا سنلتقي هنا؟ لا شك أنكَ تعرف السيدة نان؟

دُهش ساترويت؛ فالسيدة نان ممثلة قديرة معروفة، ولا عجب إذن أن تكون رائعة الصوت بارعة الإلقاء. أليست روزينا نان أشهر ممثلة في إنكلترا؟

وعاد السيد فايز يقول وهو يقدِّم الرجل الآخر الجالس على يسارها: السيد جود، زوج السيدة نان.

وكانت روزينا نان قد تزوجت كثيراً، ولا شك أن هذا السيد جود هو الزوج الأخير. وكان الزوج مهتماً بتقديم الطعام إلى زوجته بعناية وشغف؛ فمن المعروف أن السيدة نان من اللواتي يُشغفن بالطعام، وفي هذا الشأن قال فايز: هي تهيم بألوان الطعام، بل هي تعيش فقط لتأكل. في أحيان كثيرة أذكر لها لونا محبباً من الطعام قُبيل قيامها بدور معين فإذا هي تقوم بالدور كأروع ما تكون!

وسمع الرجلان السيدة نان وهي تقول لزوجها: ولكن أين الكافيار؟ أنا لم أره منذ دخلنا هنا.

- لقد أوشكتِ على الجلوس فوقه، فهو وراءكِ على المقعد.

فتناولته بسرعة وابتهاج وهي تقول: يا إلهي! أنت تعرف يا عزيزي أنني كثيرة النسيان والشرود، وقلما أعرف أين وضعتُ أشيائي.

- أجل، كما وضعتِ ذات يوم مجموعة لآلئك في كيس إسفنجة الحمام، وما أكثر البرقيات والمكالمات الهاتفية التي تبادلتُها مع الفندق حتى استرددناها!

فقالت السيدة نان بصوت حالم: على كل حال كانت هذه اللآلئ مؤمَّناً عليها، أما جوهرتي الأوبال الزمرُّدية فلم أؤمّن عليها للأسف.

وفجأة أحس السيد ساترويت أنه يعيش في إحدى مسرحيات الحياة مرة أخرى، وأنه والسيد كوين يقومان بدورهما فيها. ومن ثم شعر أن كلمة «الأوبال» هي مفتاح دوره، فانحنى إلى الأمام وقال: جوهرتك الأوبال يا سيدة نان؟

- هل أعددتَ الزبد يا هنري؟ آه! نعم، جوهرتي الأوبال. لقد سُرقت مني كما تَعلم، ولم أستردها بعد.

- آه! حدثينا بهذا الموضوع يا سيدة نان.

- نعم. لقد وُلدت في شهر تشرين الأول (أكتوبر)، ولهذا فمن الفأل الحسن أن أتزين بجواهر الأوبال، ومن ثَم اشتريتُ جوهرة مفرطحة على شكل القلب من أندر الأنواع وأصفاها، وكم كانت بهجتي حين استطعتُ أن أظفر بها بعد الصبر الطويل.

ثم تنهدت بعمق. وكان الجميع ينصتون إليها مبهورين بإلقائها وجمال نبرات صوتها، وبعد برهة من الصمت أردفت تقول: وسرقَ هذه الجوهرة النادرة مني شابٌّ يُدعى إليك جيرارد كان يكتب الروايات المسرحية.

فقال السيد فايز: وهي روايات جيدة فعلاً، وكدتُ أخرج إحداها قبل الحادث.

وقالت السيدة نان: أجل، لقد كان فيها دور رائع لي. وقد جاء إلى غرفتي بالمسرح لنتحدث بشأنها، وكان شاباً لطيفاً خجولاً وسيم الوجه في عينيه نظرات شاردة تنم عن روح شاعرية وخيال واسع... مسكين! وكانت الجوهرة موضوعةً

في علبتها على منضدة الزينة، وكان هو خبيراً في هذا النوع من الجواهر لأنه سافر ذات يوم إلى أستراليا، ومن ثَم تناولها وفحصها في الضوء، ويبدو أنه نسي نفسه ووضعها في جيبه، ولما انصرف ولم أجدها أبلغت رجال الشرطة. وكان لهذا الحادث ضجة كبيرة في مختلف الصحف حتى أن السيد فايز قال إن هذا الحادث كان أوسع دعاية مجانية حدثت لي!

وقال فايز: أجل، أجل، كان دعاية رائعة.

- وُوجدت علبة الجوهرة فارغة في مسكنه، وثبت أنه كان يعاني أزمة مالية عنيفة، ومع ذلك فقد ثبت أيضاً أنه وضع في حسابه في المصرف مبلغاً كبيراً. وزعم أنه قد وضع العلبة في جيبه سهواً وأن صديقاً لعب على جواد رابح لحسابه ثم وضع الأرباح في رصيده بالمصرف، ولكنه لم يستطع أن يذكر اسم هذا الصديق أو أن يدلي بمحل إقامته، وهكذا صدر الحكم عليه بالسجن خمسة أعوام، وقد أمضى منها الآن ثمانية أشهر.

وبعد أن ساد الصمت برهة وجيزة قالت السيدة نان فجأة: أين علبة الخوخ المحفوظ يا هنري؟

فقال زوجها هنري جود: في حقيبة حاجياتك.

فتناولت الممثلة الكبيرة حقيبة حاجياتها وراحت تفرغ ما فيها من ألوان وأصناف حتى عثرت على علبة الخوخ المحفوظة، وكان بين الأشياء التي أفرغتها من الحقيبة على الطاولة صندوق هندي تناوله القاضي الهندي السيد تومليسون

وراح يفحصه قائلاً: هذا صندوق من النوع المسحور... من أين جئتِ به يا سيدة نان؟

- هو هدية من أحد المعجبين! وأنا أضعه دائماً على منضدة الزينة في غرفتي بالمسرح، رغم أنه ليس رائع الشكل.

فضحك السيد تومليسون وقال: ربما لا يكون جميلاً، ولكنني أراهن أنكِ لا تعرفين سره. هل تحبين أن أطلعكِ على طريقته السرية؟

فقال الجميع: نعم، نعم، نريد أن نرى.

وكان للصندوق في أعلاه مفتاحان صغيران كأنهما حليتان، فضغط السيد تومليسون على أحد المفتاحين فانفتح الصندوق، ثم طلب من أحد الحاضرين أن يضع قطعة جبن من النوع المغلّف فيه، ثم أغلق الصندوق وضغط على المفتاح الآخر، ثم عاد وفتح الصندوق فإذا قطعة الجبن قد اختفت.

وسرت همهمة الدهشة من الجميع، ولكن السيد تومليسون أغلق الصندوق مرة أخرى، ثم جعله في وضع مقلوب وضغط على مفتاح آخر جانبي يشبه حلية منقوشة، ثم أعاده إلى وضعه الصحيح وفتحه، فشهق الجميع... لقد رأوا مع قطعة الجبن جوهرة من حجر الأوبال الأزرق مفرطحة على هيئة القلب!

وصاحت السيدة نان بدهشة: جوهرتي الغالية... يا إلهي، يا للهول!

تنحنح زوجها هنري جود وقال بصوت مضطرب: لا شك

أنكِ وضعتِها في الصندوق السحري سهواً، ثم ضغطتِ على المفتاح الثاني فاختفت دون أن تعلمي.

- نعم، لا شك في هذا. ولكن المهم أن الشاب إليك جيرارد لم يسرقها، أي أنه مسجون ظلماً الآن.

وهنا نهضت نوامي كارلتون سميث وقالت بصوت شاحب: أتعرفين مَن يكون إليك جيرارد بالنسبة لي؟ إنه خطيبي، وقد كدتُ أن أنتحر أكثر من مرة من فرط اليأس.

قالت هذا ثم اندفعت إلى خارج الكوخ باكية، فلحق بها السيد كوين والسيد ساترويت. وكانت العاصفة الثلجية قد هدأت وانقطع سقوط قطع الجليد، فقال السيد كوين وهو ينظر إلى السماء الصافية: حسناً، أعتقد أنه ينبغي لي أن أنصرف الآن.

فنظرت نوامي إليه في دهشة وقالت: ولكن ماذا عن خطيبي جيرارد؟

- لا شك أنه سيطلق سراحه بالتلغراف اليوم و...

- ماذا؟

إوحين تحرك بعيداً قال السيد ساترويت: إلى أين هو ذاهب؟

فقالت نوامي بصوت غريب: من حيث جاء على ما أظن.

- ولكن ليس هناك طريق مفتوح؛ لقد قلتِ بنفسك إننا في آخر الدنيا.

هزت نوامي كتفيها فقال لها ساترويت: والآن، هل

تسمحين لي بالركوب معكِ في رحلة العودة؟

وهنا، ولأول مرة، أشرق وجهها سروراً وابتهاجاً وقالت: نعم، نعم؛ فأنا الآن واثقة من أننا سنصل إلى الفندق بلا أحداث مفاجئة في الطريق.

* * *

ذات الوعاء الفضي

مشى السيد ساترويت متمهلاً في شارع بوند ستريت مستمتعاً بدفء الشمس، في طريقه إلى معرض هاركستر للصور الفنية حيث كان الرسام العبقري الجديد بريستو يعرض أول مجموعة من لوحاته الفنية. وفيما هو يدخل إلى ردهة المعرض حياه أحد المشرفين على المعرض قائلاً: طاب صباحك يا سيد ساترويت. لقد كنا نتوقع حضورك يوماً بعد آخر، ولا شك أنك ستعجب بهذا الفنان الجديد أشد الإعجاب.

ومضى السيد ساترويت إلى قاعة العرض الواسعة المستطيلة التي علقت اللوحات على جدرانها الأربعة، وراح يتأمل في إعجاب واضح اللمسات الفنية الأصيلة البادية في خطوط كل لوحة على انفراد. وتوقف فجأة أمام لوحة تمثل جسر وستمنستر بما عليه من مارة وسيارات خاصة وعامة ومركبات مختلفة الأنواع، وكان الفنان قد أطلق على هذه اللوحة اسم «مستعمرة النمل». ثم تحرك إلى اللوحات الأخرى حتى توقف أمام لوحة جعلته يتسمر مكانه. كانت اللوحة تسمى «موت المهرج»، وكانت أرضيتها، أو الجزء الأمامي منها،

تمثل أرضية كبيرة ذات بلاط من اللونين الأبيض والأسود، وفي وسطها رقدت جثة مهرج ميت في ملابسه الحمراء والسوداء وقد مد ذراعيه على جانبيه، وفي الجزء الخلفي من اللوحة جدار جانبي للشرفة الكبيرة فيه نافذة زجاجية، ومن ورائها بدا وجه ينظر بهدوء إلى «المهرج الميت». وأعجب ما في اللوحة أن التشابه كان واضحاً بين الوجه الذي كان ينظر من وراء النافذة وبين وجه المهرج الميت، فكأنما أراد الفنان أن يرمز لروح الميت حين ترقب الجسد بعد انفصالها عنه. لكن الشيء الذي أثار انفعال السيد ساترويت هو أنه عرف، أو خيل إليه أنه عرف، وجه المهرج الميت لأنه كان يشبه إلى حد كبير وجه صاحبه... ذلك الرجل الخفي، السيد كوين، الذي كان يظهر في حياته ويختفي في أوقات معينة. فقال لنفسه متعجباً: أنا غير مخطئ بالتأكيد، فما معنى هذا؟

ذلك أن التجارب أكدت له أنه في كل مرة يرى فيها السيد كوين لا بد وأن يكون لظهوره سبب معين. وكان ثمة شيء آخر قد أثار اهتمامه باللوحة، ذلك أنه عرف المكان الذي صوره الفنان بريشته، ومن ثم عاد يقول لنفسه: إنها الشرفة الكبيرة في قصر اللورد شارنلي؟ عجباً، عجباً!

وبعد أن شاهد جميع اللوحات المعروضة ذهب إلى مدير المعرض السيد كوب، فقال له بعد أن تبادل التحية معه: بودي أن أشتري اللوحة رقم ٣٩ إذا لم يكن أحد قد سبقني إلى شرائها.

فقال السيد كوب بعد أن راجع دفتره: أوه، لقد عرفت

كيف تختار يا سيد ساترويت. كلا، لم يشترها أحد. إنها فعلاً تحفة، وأعتقد أنك ستجد بعد عام من يعرض عليك ثلاثة أضعاف ثمنها.

- هذا ما تقوله لي دائماً يا سيد كوب، أليس كذلك؟

فابتسم الرجل وقال: هل تراني خدعتك ذات مرة؟ ألم يصدق حدسي دائماً؟

- نعم، نعم، أعترف بهذا. حسناً، سأكتب لك الآن شيكاً بثمن اللوحة.

- لن تندم على هذا، فإن بريستو فنان سيخلد التاريخ اسمه.

- أهو لا يزال بمرحلة الشباب؟

- إنه في السادسة والعشرين أو السابعة والعشرين من عمره.

- أرغب في مقابلته، ولعله يقبل دعوتي لتناول العشاء معي الليلة.

أومأ السيد كوب برأسه وقال: سأعطيك عنوانه، ولا شك أنه سيبتهج بهذه الدعوة لأنك معروف للجميع كواحد من أنصار الفن والفنانين.

قال ساترويت وهو يهم بالذهاب: إنك تمتدحني أكثر مما أستحق.

فقاطعه السيد كوب بغتة قائلاً: ها هوذا قد حضر، فسأقدمك له فوراً.

ونهض عن مكتبه، وشرع يقدم السيد ساترويت إلى الفنان الشاب الوسيم ذي الجسم الكبير والوجه الحالم، وبعد التعارف قال السيد ساترويت: كان لي الآن شرف شراء لوحتك الرائعة: «موت المهرج».

فابتسم الفنان الشاب وقال: أعتقد أنك لن تخسر كثيراً من شراء هذه اللوحة، أعتقد أنها جيدة... وإن كان لا ينبغي أن أقول هذا.

- بل هذه هي الحقيقة يا سيد بريستو، وإنني شديد الإعجاب بلمساتك الفنية، وأرجو أن تشرفني بقبولك دعوتي لتناول العشاء معي الليلة إذا لم تكن مرتبطاً بموعد سابق.

- الواقع أنني غير مرتبط بموعد الليلة، ومن ثم يسرني أن أقبل دعوتك.

- إذن هل أنتظرك الساعة الثامنة مساء؟ هذه بطاقتي وعليها العنوان.

- أوه، حسناً. شكراً جزيلاً.

قال ساترويت وهو ينصرف: إنه شاب عبقري لطيف، ولكنه خجول لا يعرف قدر نفسه كما يبدو.

* * *

وصل فرانك بريستو في الثامنة وخمس دقائق مساء حيث وجد لدى السيد ساترويت ضيفاً آخر هو الكولونيل مونكتون، ومضى الثلاثة إلى مائدة العشاء حيث كان ثمة مقعد رابع خال

قال عنه ساترويت: إنني أنتظر حضور صديق لي يدعى كوين، هارلي كوين، هل تعرفه يا سيد بريستو؟

فاضطرم وجه الفنان الشاب وقال مرتبكاً: الواقع أنه هو الذي أوحى إليّ بفكرة لوحة «موت مهرج»، وكان طبيعياً أن يأتي الشبه مماثلاً بينه وبين وجه المهرج.

وكان الكولونيل مونكتون يتأمل الفنان الشاب كأنه نوع جديد من الأسماك النادرة، هذا بينما كان ساترويت يقول: الواقع أن هذا الشبه هو الذي حفزني على شراء اللوحة، كما أنني أعرف المكان الذي صورته فيه. إنها الشرفة الكبيرة في قصر اللورد شارنلي، أليس كذلك؟

فلما أومأ الفنان برأسه تابع ساترويت يقول: لقد نزلت في ضيافة اللورد شارنلي بضع مرات قبل مأساته، ولعلك تعرف بعض أفراد أسرته.

فقطب بريستو جبينه وقال: يؤسفني أنني لم أعرف أحداً في هذه العائلة، لكن السيد كوين هو الذي اقترح رسم تلك اللوحة هناك.

وبعد لحظات من حديث عادي قال ساترويت: إن قصر شارنلي من القصور التي تستهوي الناس لزيارتها، وقد زرته مرة بعد المأساة.

فقال بريستو: نعم، إنه قصر تاريخي يحيط به جو من الغموض والأسرار.

قال الكولونيل مونكتون: يقال إن فيه شبحين، لا شبحاً واحداً! شبح الملك تشارلز الأول يجوب أنحاءه وهو يحمل رأسه تحت ذراعه، ولا أدري لماذا... وشبح السيدة ذات الوعاء الفضي، التي يقال إنها تُرى دائماً بعد موت أحد أفراد عائلة شارنلي.

غمغم بريستو متهكماً: خرافات!

فقال ساترويت بسرعة: إنها عائلة سيئة الطالع، فقد مات أربعة من حاملي اللقب ميتة شنيعة، وأخيراً مات اللورد شارنلي منتحراً.

قال الكولونيل بأسى: كانت مأساة مؤلمة. لقد كنت هناك عندما وقعت.

فقال ساترويت: آه نعم، كم مضى عليها الآن؟ نحو أربعة عشر عاماً. ولا يزال القصر مهجوراً منذ ذلك الحين.

فقال الكولونيل: إنني لأعجب لهذا، فلا شك أن المأساة كانت صدمة قاسية على عروس اللورد الشابة التي لم تكن قد تجاوزت السابعة عشرة والتي لم يكن قد مضى على زواجها باللورد أكثر من شهر. وكان اللورد شارنلي قد عاد معها من شهر العسل وأقام حفلة تنكرية راقصة احتفالاً بهذه المناسبة، وبينما كان المدعوون يتوافدون إذا باللورد الشاب يدخل إلى الغرفة المسماة «قاعة السنديان» ويغلقها على نفسه ثم ينتحر، وكان الحادث شاذاً لا يكاد يصدقه أحد.

- آه، ماذا تقول؟

والتفت بسرعة نحو الستارة، ثم نظر إلى ساترويت وضحك وهو يقول معتذراً: يبدو أن ذكرى المأساة قد أثرت على أعصابي، فقد خيّل إلي أنني سمعت شخصاً يحدثني من هذا المقعد الخالي. وتابع حديثه الأول قائلاً: كانت الصدمة شديدة على عروس اللورد، أليس شارنلي. وكانت يومذاك من أجمل الفتيات اللائي يمكن أن يراهن الإنسان في أي مكان، كانت من النوع الممتلئ بحب الحياة وبالرغبة في الارتواء منها، لكنها الآن تعيش كالشبح. أنا لم أرها منذ أعوام وأعتقد أنها تعيش خارج البلاد معظم الوقت؟

- والابن؟

- إنه في كلية إيتون، ولا يدري أحد ماذا سيفعل حين يبلغ سن الرشد. لا أعتقد على كل حال أنه سيعيد فتح أبواب القصر.

وهنا نهض ساترويت وقال: هلم إلى الغرفة، فإن لديّ مجموعة من الصور الفوتوغرافية لقصر شارنلي وأحب أن أطلعكم عليها.

كان من بين هوايات ساترويت هواية تصوير منازل وقصور أصدقائه من الداخل، وقد ألف في هذا الموضوع كتاباً سماه «بيوت أصدقائي»، وقد ابتهج أصدقاؤه بهذا الكتاب وراحوا يتفاخرون باقتنائه.

وقال وهو يسلم بريستو إحدى الصور: هذه صورة الشرفة الكبيرة، وقد التقطتها في العام الماضي من نفس الزاوية التي

رسمت منها صورتك. أترى هذه السجادة الصغيرة في جانب من الشرفة؟ إنها سجادة كنت أتمنى لو استطعت أن التقطها بشريط ملون.

فقال بريستو: أتذكّرها. إنها رائعة اللون حقاً، كأنها قطعة من النار المتوهجة، ولكني ألاحظ أن وضعها على أرضية هذه الشرفة الواسعة لا يتلاءم مع الذوق السليم لأنها صغيرة جداً بالنسبة لاتساع الشرفة، حتى بدت كأنها بقعة ضخمة من الدماء على الأرضية ذات اللونين الأبيض والأسود. بل لقد خيّل إليّ أن وضع هذه السجادة النارية في ذلك المكان يوحي بقسوة المأساة التي حدثت في قاعة السنديان المؤدية إليها.

قال الكولونيل: قاعة السنديان! آه، نعم. إنها القاعة المسكونة بالشبح، ويقال إن بين ألواح جدرانها لوحاً بالقرب من المدفأة يخفي وراءه مخبأً سرياً، كما يقال إن تشارلز الأول لجأ إلى هذا المخبأ السري ذات مرة. ويقولون أيضاً إن اثنين ماتا فيها أثناء المبارزة بالمسدسات. نعم، إن ريجي شارنلي قد انتحر في هذه القاعة نفسها.

ثم تناول الصورة من يد بريستو وأردف قائلاً وهو يتأملها: عجباً! إنها السجادة الحمراء الرائعة التي قيل إنها تساوي أكثر من ثلاثة آلاف جنيه! وحين كنت هناك قبل الحفلة لاحظت أنها كانت موضوعة في قاعة السنديان، وهي فعلاً مناسبة لتلك القاعة، ولا أدري من نقلها من القاعة إلى هذه الشرفة الواسعة ذات الأرضية الرخامية!

ونظر ساترويت إلى المقعد الخالي الذي كان قد وضعه إلى

جانب مقعده، ثم قال بشرود الذهن: نعم، من نقلها ومتى؟

فقال الكولونيل: أعتقد أنها قد نُقلت من الغرفة إلى الشرفة في نفس يوم المأساة، لأنني أذكر أن شارنلي حدثني عنها وهي لا تزال في الغرفة وقال إنه يفكر في الاحتفاظ بها داخل خزانة زجاجية حسنة التهوية.

قال ساترويت: لقد أُغلق القصر بعد المأساة مباشرة، وقد بقي كل شيء في مكانه منذ ذلك الحين.

وفجأة قال بريستو متسائلاً: لماذا أطلق اللورد شارنلي الرصاص على نفسه؟

فتململ الكولونيل مونكتون في مقعده وقال: لا أحد يعرف السبب.

وهنا قال ساترويت: لا أظن أن الأمر انتحار.

فنظر الكولونيل إليه مندهشاً وقال: لا تظنه انتحاراً، عجباً! إنه انتحار طبعاً يا عزيزي. لقد كنت حاضراً في القصر حين وقوع المأساة.

فنظر ساترويت إلى المقعد الخالي وابتسم لنفسه كأنما يضحك من فكاهة خاصة لا يعرفها أحد، ثم قال: إن الإنسان يرى أحياناً بوضوح بعض الجوانب التي كانت غامضة إذا مرت عليها أعوام كثيرة.

فقال الكولونيل محتجاً: هراء... هراء تام! كيف يستطيع الإنسان أن يرى بوضوح أشياء كانت غامضة بعد مرور أعوام كثيرة؟

فأيد بريستو رأي ساترويت بقوله: أدرك ما تعنيه، ويمكنني القول إنك على حق، فالمسألة تتعلق بما نسميه التوازن أو حسن التقدير إذا أرادت.

فقال الكولونيل وهو يلتفت حوله بعنف: إذا سألتني عن رأيي فأنا لا أؤمن بهذه النظريات الغامضة ولا بما يقال عن تحضير الأرواح أو ظهور الأشباح. والمهم أن ما حدث كان انتحاراً، لقد شاهدت الحادث بنفسي، على وجه التقريب.

فقال ساترويت: حدثنا به إذن حتى نراه بعينيك.

فغمغم الكولونيل بكلمات غامضة، ثم اعتدل في مقعده وابتدأ الحديث قائلاً: كان الحادث كله شاذاً غير متوقع، فقد كان شارنلي في حالته العادية، وكانت الحفلة تضم عدداً كبيراً من المدعوين ولم يكن أحد يتوقع أبداً أن يطلق اللورد الشاب الرصاص على نفسه أثناء توافد المدعوين على القصر.

فقال ساترويت: كان من حسن الذوق على الأقل أن ينتظر انصراف المدعوين من الحفلة ثم ينتحر إذا أراد.

- طبعاً، إن من فساد الذوق أن يفعل إنسان شيئاً كهذا أياً كانت الظروف.

- لكن لم يكن اللورد شارنلي معروفاً بفساد الذوق؟

- نعم، بل كان على النقيض، كان رجلاً سليم الذوق مهذب السلوك إلى أبعد حد.

- ومع ذلك فأنت لا تزال مصراً على أن الحادث كان انتحاراً؟

- طبعاً، طبعاً. لقد كنا ثلاثة أو أربعة على رأس الدرج داخل القصر، أنا والآنسة إستراندر وإلجي دراسي، وواحد أو اثنان آخران. وقد اجتاز شارنلي الردهة الواقعة تحتنا في طريقه إلى قاعة السنديان. وتقول الآنسة إستراندر إن وجهه كان شاحباً مكتئباً وإن اليأس كان يطل من عينيه، لكن هذا كله لغز فارغ لأنه لم يكن في مقدور أحدنا أن يرى وجهه من مكاننا المرتفع. وكل ما في الأمر أنه كان يسير حقاً محني القامة كأنما يحمل على عاتقه هموم الدنيا. ونادته فتاة من المدعوات، وهي وصيفة سيدة من سيدات المجتمع، وكانت الليدي شارنلي قد دعتها مع سيدتها بدافع من العطف، وكانت هذه الفتاة تبحث عنه لتبلغه رسالة شفوية، فلما رأته في الطريق إلى قاعة السنديان نادته قائلة: "لورد شارنلي، إن الليدي شارنلي تريد أن تعلم..."، لكنه لم يحفل بها ودخل الغرفة وصفق الباب وراءه. وسمعنا صرير المفتاح وهو يغلق على نفسه من الداخل، ثم إذا نحن بعد لحظة نسمع دوي الطلقة النارية. واندفعنا إلى الردهة، وكان ثمة باب آخر لقاعة السنديان يؤدي إلى الشرفة الكبيرة، ولكننا وجدنا ذلك الباب مغلقاً من الداخل فاضطررنا إلى تحطيمه. وهناك على أرض القاعة وجدنا اللورد شارنلي جثة هامدة والمسدس بالقرب من يده اليمنى. فكيف يمكن أن يكون الحادث غير الانتحار؟ إن هناك احتمالاً آخر وهو جريمة القتل، لكن هل هناك جريمة قتل بغير قاتل؟

فقال ساترويت: ربما هرب القاتل؟

- هذا هو المستحيل لأن قاعة السنديان ليس لها غير بابين فقط، باب يؤدي إلى الردهة (وهو الذي دخل منه اللورد شارلي

وأغلقه من الداخل على مسمع منا) وباب يؤدي إلى الشرفة الكبيرة، وقد وجدناه مغلقاً أيضاً من الداخل بالقفل والمفتاح.

- والنافذة؟

- كانت مغلقة تماماً من الداخل أيضاً.

وبعد برهة من الصمت قال الكولونيل: هذه هي المسألة كلها.

فقال ساترويت: إنها كذلك كما تبدو للجميع، لكن...

وعاد الكولونيل يقول: وبمناسبة الحديث عن الأشباح يمكنني أن أقول إن الشائعات تدور حول قاعة السنديان هذه، ويقال إنها مسكونة بالأشباح وإن على جدرانها الخشبية كثيراً من الثقوب الناشئة من رصاص المبارزات، وإن كثيراً من المتبارزين قد ماتوا فيها وإن دماء بعضهم تأبى أن تزول من الأرضية رغم تغيير الأخشاب بغيرها... ولا ريب أن هناك الآن بقعة دماء أخرى هي دماء المسكين شارنلي.

فقال ساترويت: هل نزفت منه دماء كثيرة؟

- لا، بل قليلة، وقد عجب الطبيب لهذا.

- وأين أطلق الرصاص على نفسه؟ على رأسه؟

- لا، بل على قلبه.

فقال بريستو: ليست هذه هي الطريقة السهلة للانتحار لأن إطلاق الرصاص على القلب يسبب آلاماً قوية وقد يجعل المنتحر يتعذب قبل أن يلفظ أنفاسه، وذلك بعكس إطلاق الرصاص على الرأس الذي يؤدي إلى الموت في الحال.

فقال ساترويت: بمناسبة ما يقال عن أشباح القصر، هل رأيت يا كولونيل ما يؤكد هذه الشائعات؟

فقال الكولونيل بلهجة التأكيد: لا، لكني أظن أن جميع خدم القصر يؤكدون أنهم رأوا شبح السيدة ذات الوعاء الفضي. ثم أردف قائلاً: وأنا أرجو الآن، يا ساترويت، أن تكون قد تأكدت أن الأمر انتحار.

- نعم، نعم. ولكن هذا لا يمنع الإنسان من التفكير في شذوذ هذا التصرف. فلماذا -مثلاً- ينتحر شاب موفور الثراء رفيع المقام حديث العهد بالزواج، وفي نفس الليلة التي يحتفل فيها بعودته مع عروسه إلى قصره بعد شهر العسل؟

وقطب جبينه ثم تابع قائلاً: ولكنه مع هذا قد مات أو انتحر، وتلك هي الحقيقة التي لا مفر من الاعتراف بها.

قال الكولونيل: لقد ترددت شائعات كثيرة... كل أنواع الشائعات طبعاً.

- لكن الحقيقة لم يعرفها أحد.

- نعم.

- والأعجب من هذا أن أحداً لم يستفد من وقوع هذا الحادث.

- نعم، فيما عدا الجنين الذي كانت تحمله العروس وهي لا تدري.

ثم أرسل ضحكة تهكمية وتابع قائلاً: والواقع أن مولد هذا

الطفل قد جاء ضربة قاضية لآمال المسكين هيجو شارنلي، أخي اللورد المتوفى، فبمجرد أن ثبت أن عروس اللورد حامل راح ينتظر ثمانية شهور ليرى هل سيأتي المولود ذكراً أم أنثى؟ فلو أنه جاء أنثى لورث هيجو لقب أخيه وثروته كلها، لكن شاء القدر أن يأتي المولود ذكراً وأن تضيع آمال هيجو ومن معه.

- وماذا كان موقف الأرملة الشابة عقب الحادث؟

- يا للمسكينة! إنني لم أنس منظرها. لم تبكِ أو تسقط منهارة، وإنما بدت كأنها تجمدت كتمثال بلا روح. وقد أغلقت أبواب القصر بعد المأساة كما عرف الجميع، وأكبر الظن أنها لن تعود للحياة في جوانبه يوماً.

فابتسم بريستو قائلاً: لا ريب أن وراء هذه المأساة امرأة في حياة اللورد شارنلي أو رجلاً في حياة أرملته.

فقال ساترويت: هذا ما يبدو، لكن المرجح جداً أنها امرأة في حياة اللورد لأن الأرملة لم تتزوج بعده.

وهنا قال بريستو بحماس: أياً كان الأمر فإنني أكره النساء بوجه عام! إنهن السبب في كل مأساة من هذا النوع، وأعترف أنني لم ألتقِ في حياتي بامرأة أثارت خيالي وأسرت عواطفي إلا امرأة واحدة، وقد التقيت بها صدفة في القطار أثناء عودتي من رحلة في شمال إنجلترا.

فقال ساترويت: نعم، نعم، الكثير من قصص الغرام يبدأ بمثل هذا اللقاء في القطارات.

- لقد جلسنا في مقصورة واحدة بمفردنا وبدأنا نتحدث معاً منذ اللحظة الأولى، وأعتقد أن شيئاً من العواطف المتبادلة ربطت بيننا منذ اللحظة الأولى أيضاً. وأنا لا أعلم اسمها، بل لا أظن أنني سألتقي بها مرة أخرى، وأعتقد أن الشيء الذي أثار عواطفي نحوها هو ذلك الطابع الروحي العجيب الذي كان يغلفها. لقد بدت لي كأنها امرأة خرجت من صفحات إحدى الأساطير.

فأومأ ساترويت برأسه وهو يدرك أن فناناً مثل بريستو لا بد أن يتأثر بامرأة من هذا النوع. أما بريستو فقد تابع قائلاً: ويبدو لي أن السر في هذه الشفافية التي تميزت بها أنها أصيبت في مستهل حياتها بصدمة رهيبة جعلتها تحاول الفرار من دنيا الواقع إلى عالم الخيال.

- هل ذكرت لك شيئاً عن مأساتها؟

- لا، ولكنني استنتجت هذا، فإن على الإنسان أن يلجأ إلى الاستنتاج أحياناً لكي يصل إلى الحقيقة إذا أراد.

قال ساترويت ببطء وبلهجة لها دلالتها: نعم إن على الإنسان أن يلجأ إلى الاستنتاج أحياناً.

وفي تلك اللحظة فتح الخدم الباب وقال له: إن سيدة تريد مقابلتك يا سيدي لأمر هام، إنها الآنسة سبيسيا جلين.

فنهض ساترويت بسرعة مندهشاً. لقد كان يعلم من هي سبيسيا جلين، إنها ممثلة مشهورة في أنحاء لندن وقد أطلق عليها النقاد اسم «السيدة ذات المنديل» لأنها برعت في تمثيل

أدوار كثيرة بمنديل واحد، إذ جعلته مرة غطاء للرأس في دور ريفية، ومرة كاب ممرضة، وثالثة خمار بائعة لبن، وعشرات أخرى من هذه الأدوار. لكنه لم يكن يعرفها شخصياً، فلماذا تود مقابلته؟

ومضى إليها حيث كانت جالسة في غرفة الاستقبال في وضع ينم عن كثرة اعتدادها بنفسها وقوة ثقتها في تأثير شخصيتها في الغير. كانت طويلة القامة خمرية اللون في نحو الخامسة والثلاثين من عمرها، ولكن جمالها المذهل جعلها تبدو أصغر من هذه السن.

قالت له بصوتها الجذاب: أعتذر لك عن هذه الزيارة المفاجئة يا سيد ساترويت، ولولا أن الأمر لا يحتمل التأخير لطلبت تحديد موعد من قبل. ثم أردفت قائلة: الحقيقة أنني كنت أريد أن أتعرف بك منذ مدة طويلة، ومن ثم فإنني مبتهجة بهذه الظروف التي دفعتني للحضور. والواقع أنني إذا أردت شيئاً فإنني أحب الحصول عليه فوراً لأنني لا أطيق الانتظار.

فقال ساترويت: أياً كان السبب الذي دفعك إلى الحضور فإنني سعيد به يا آنسة جلين، وأنتهز هذه الفرصة لأعرب لك عن إعجابي الشديد بمواهبك.

فنظرت إليه باسمة وقالت بعد أن شكرته: أما عن سبب حضوري فهو لوحة «موت المهرج». لقد رأيتها اليوم في معرض هاركستر، ولما أردت شراءها بأي ثمن قال لي المدير إنك سبقتني إلى شرائها.

ثم توقفت برهة عن الحديث قبل أن تتابع كلامها: والواقع

إنني أريد هذه اللوحة وبأي ثمن يا سيد ساترويت، وقد أحضرت معي دفتر الشيكات، وسوف أترك لك تحديد الثمن الذي تريده.

نظر ساترويت برهة إلى الممثلة وهو يشعر في قرارة نفسه بنفور عظيم من أساليبها المكشوفة للحصول على ما تريد. إنها لم تعد في نظره امرأة جميلة أو ممثلة موهوبة، وإنما مخلوقة أنانية مصممة على أن تظفر بكل ما تهفو إليه نفسها. ولهذا قرر ألا يتنازل لها عن هذه اللوحة بأي ثمن أيضاً، وراح يفكر بسرعة في أنسب عذر يقدمه إليها وهو يرفض تحقيق رجائها، فقال: أنا واثق أنه لا يوجد الإنسان الذي يرفض أن يحقق لك رجاء أياً كان يا آنسة جلين.

- إذن فسوف تعطيني اللوحة؟

فهز ساترويت رأسه وقال بحزن مصطنع: يؤسفني القول إن ذلك مستحيل، لأنني اشتريت هذه اللوحة لأهديها إلى سيدة.

- أوه، ولكن بالتأكيد يمكنك...

وهنا صلصل جرس التليفون بعنف، فتناول ساترويت السماعة، وإذا بسيدة تقول له: هل أستطيع التحدث مع السيد ساترويت؟

- نعم يا سيدتي، أنا هو.

- أنا الليدي شارنلي، ولست أدري هل تتذكرني يا سيد ساترويت بعد كل هذه السنوات؟

- أوه، كيف يمكن أن أنساك يا عزيزتي أليس؟ هل هذا معقول؟

- شكراً يا سيد ساترويت. والآن أريد أن أتحدث معك بشأن لوحة «موت المهرج» التي ابتعتها اليوم من معرض هاركستر. إنني في حاجة إلى هذه اللوحة يا سيد ساترويت لأسباب خاصة، فهل أطمع في أن تتنازل لي عنها؟

ورأى ساترويت أنه قد تلقى نجدة من السماء في الوقت المناسب، وكان يعلم أن سبيسيا جلين تسمع حديثه طبعاً ولكنها لا تسمع حديث الطرف الآخر، ومن ثم قال مطمئناً: يسعدني جداً أن تقبليها كهدية، ولكنني أرجو فقط أن تأتي إلى منزلي الآن. فهل أطمع أن تحققي لي هذا الرجاء؟

- آوه، طبعاً. هذا أقل ما يجب إزاء كرمك، لسوف آتي فوراً.

ولما وضع السماعة قالت سبيسيا جلين بغضب: أكان هذا الحديث عن اللوحة؟

- نعم، وسوف تأتي السيدة بعد لحظات قصيرة.

فأشرق وجه الممثلة وقالت بغتة: لا ريب أنك طلبت حضورها فوراً لتتيح لي فرصة إقناعها بالتنازل عنها لي.

- نعم، يمكنك أن تقنعيها إذا أرادت. والآن هل تسمحين بالانتقال معي إلى الغرفة الأولى، فإن لديّ بعض الأصدقاء الذين أحب أن أقدمك إليهم؟

وفتح لها باب الغرفة ثم قال لها وهو يقدمها: الآنسة جلين، دعيني أقدم لك صديقي القديم الكولونيل مونكتون وصديقي الجديد الفنان بريستو.

ثم توقف عن الحديث فجأة حين رأى السيد كوين جالساً في المقعد الذي كان يحتجزه خالياً. ثم إذا هو يبتسم ويستطرد قائلاً: وصديقي السيد هارلي كوين.

قال السيد كوين: لقد قدمت نفسي لهذين السيدين أثناء غيابك عن الغرفة يا ساترويت.

وكان ساترويت قد لاحظ أن الآنسة سبيسيا جلين قد شهقت وتراجعت خطوة عندما نطق باسم صديقة السيد كوين، ولكنها لم تلبث أن تمالكت نفسها بعد لحظات، ثم التفتت إلى الفنان بريستو وقالت له: ما الذي جعلك ترسم هذه الصورة بالذات؟

فهز بريستو كتفيه، ثم قال وهو يختلس النظر إلى السيد كوين: لا أدري على وجه التحديد. إنه قصر مثير للخيال، كما أن الشائعات كثيرة عن أشباحه وغرفه المسكونة. وعلى كل حال أذكر أن صديقاً أوحى إليّ برسم هذه الصورة بعد أن حدثني بمأساة اللورد شارنلي.

وفي تلك اللحظة فُتح الباب وأُعلن عن وصول الليدي شارنلي، فأسرع ساترويت لاستقبالها. وكانت قد بلغت الثلاثين من عمرها أو أكثر قليلاً، وقد تذكّرها وهي فتاة في ريعان الصبا ممتلئة حياة وابتساماً، وقد أصبحت الآن كالطيف الذي يتحرك

في خفة وروحانية مع الاحتفاظ بكل مقومات جمالها.

فقال لها ساترويت: شكراً لحضورك يا ليدي شارنلي.

ثم سار معها في الغرفة. وبدا عليها أنها تعرف الممثلة الآنسة جلين، فهمّت بأن تقدم يدها إليها لكن الممثلة ظلت جامدة، فقالت الليدي شارنلي معتذرة: أوه، إنني آسفة، فقد خطر لي أنني رأيتك من قبل.

قال ساترويت: ربما على خشبة المسرح، فهذه الآنسة سبيسيا جلين.

وهنا قالت الآنسة جلين بصوت أدهش ساترويت لما فيه من تلوين مسرحي عجيب: إنني سعيدة جداً بلقائك يا ليدي شارنلي.

ولما قدم بريستو إليها قالت الليدي وهي تبتسم: لقد التقيت بالسيد بريستو مرة في القطار.

وبعد أن عرّفها بالسيد كوين (الذي قالت عنه إنها تذكر أن زوجها الراحل قد ذكر اسمه مرة أو مرتين أثناء حديثه مع أصدقائه) جلس السيد ساترويت وتنحنح، ثم قال وهو ينظر إلى السيد كوين بين لحظة وأخرى: إننا الآن نجتمع على غير اتفاق سابق بسبب لوحة «موت المهرج»، وأعتقد أن في مقدورنا الآن أن نعرف الحقائق التي كانت غامضة.

فقال الكولونيل: ما هذا يا سيد ساترويت؟ هل تنوي أن تعقد جلسة لتحضير الأرواح؟

- لا، لكن صديقي السيد كوين يعتقد (وأنا أتفق معه) على أننا نستطيع بإعادة النظر إلى أحداث الماضي أن نعلم الحقائق كما هي، لا كما تبدو في حينها.

فقالت الليدي شارنلي: الماضي؟

- أعني مأساة زوجك يا أليس، وأعلم أن هذا الحديث قد يؤلمك.

- لا، إنه لا يؤلمني، فلم يعد ثمة ما يؤلمني الآن.

فنظر ساترويت برهة إلى الليدي شارنلي وقد بدت في رقة الطيف أو الشبح، ثم قال بغتة: إنك يا عزيزتي تذكّرينني بالسيدة ذات الوعاء الفضي التي يقال...

سُمع فجأة صوت: "طق"، وسقط فنجان القهوة من يد الممثلة سبيسيا جلين على الأرض متحطماً، بينما تابع ساترويت كلامه: نحن نقترب... نقترب جداً، لكن من أي شيء؟ لقد قتل اللورد نفسه، فلماذا؟ إن أحداً لا يعلم.

فتململت الليدي شارنلي في مقعدها، ثم إذا بالفنان بريستو يقول فجأة: الليدي شارنلي تعلم السبب.

فنظرت السيدة طويلاً إلى الفنان، فأومأ برأسه كأنما يشجعها على الحديث، وأخيراً قالت بهدوء: نعم، إنني أعرف السبب، وهذا ما يجعلني أرفض العودة للإقامة في القصر.

- هل يمكن أن تخبرينا به؟

- نعم، لقد عرفت السبب حين عثرت على خطاب بين أوراقه، وقد أحرقته.

- وماذا قرأت في هذا الخطاب؟

- كان خطاباً من فتاة فقيرة كانت تعمل مربية أطفال عند أسرة ميريام، وقد فهمت أنه كان بينها وبينه علاقة حب انتهت بأن حملت منه، وقد ظلت هذه العلاقة بينهما حتى أثناء خطبتي له. وقالت في الخطاب إنها ستخبرني أنا بالحقيقة قبل أن ترفع الأمر إلى القضاء، ولهذا أسرع وقتل نفسه.

وهنا قال الكولونيل مونكتون: إذن فقد وضح الأمر وعُلم السبب الحقيقي لانتحاره.

وهنا قال ساترويت: ولكننا لم نعلم السبب الذي من أجله رسم السيد بريستو الصورة. لكن يمكن أن نستنتج أنه بخياله وروحانيته استطاع أن يرمز للمأساة بالجسد الملقى في الشرفة الكبيرة وبالروح التي تراقب الجسد من وراء النافذة المطلة عليها.

فقال الكولونيل: ولكن الجسد لم يكن في الشرفة، وإنما كان في قاعة السنديان كما رأيناه.

- ربما كان الجسد في الشرفة أولاً، ثم حمله شخص ما إلى قاعة السنديان.

فبدت الدهشة على الكولونيل وقال: إذن كيف رأينا اللورد شارنلي وهو يدخل غرفة السنديان سائراً؟

- حسناً، هل رأيت وجهه؟ هل أنت واثق أنه اللورد حقاً؟ ما المانع من أن يكون الذي دخل غرفة السنديان رجلاً آخر يرتدي نفس العباءة التي كان يرتديها اللورد في الحفلة التنكرية؟ ولقد كان مما أكد لكم أنه هو اللورد نداء الفتاة له لتبلغه رسالة شفهية.

فقال الكولونيل متهكماً: وإذا كان الذي دخل قاعة السنديان رجلاً آخر غير اللورد، فأين ذهب أو اختفى وقد كانت الغرفة مغلقة الأبواب والنوافذ من الداخل؟

قال ساترويت: ألم تقل إن بها مخبأ سرياً في الجدار؟

ثم رفع يديه ليمنع الكولونيل من مقاطعته وتابع كلامه: لقد أصبح الأمر واضحاً الآن. فلنفرض أن رجلاً ما قد قتل اللورد في الشرفة الكبيرة، ثم تعاون مع رجل آخر وسحب الجثة إلى قاعة السنديان حيث وضع المسدس بجانب اليد اليمنى. ولكي يبدو الأمر انتحاراً دخل ذلك الشخص إلى قاعة السنديان عن طريق الردهة وهو في ثياب اللورد شارنلي حتى يظن من يراه أنه اللورد، وكان قد اتفق مع شخصية ما لكي تناديه باسم اللورد شارنلي حتى تجعل الذين يرونه من أعلى يتأكدون أنه فعلاً اللورد شارنلي. وبعد أن دخل وأغلق الباب من الداخل بالمفتاح أطلق رصاصة على الجدار، وبطبيعة الحال لم يلحظ أحد الثقب الذي أحدثه بجانب الثقوب الكثيرة الموجودة أصلاً. ثم اختبأ في المخبأ السري. وكان طبيعياً بعد ذلك أن يظن الجميع أن اللورد قد انتحر لأنه لم يكن هناك ما يدعو إلى الشك في أي احتمال آخر.

قال الكولونيل: أنا لا زلت أؤمن بأنه قد انتحر فعلاً، والدليل على ذلك هو الخطاب الذي عثرت عليه الليدي شارنلي في أوراقه بعد ذلك.

- إن هذا الخطاب مدسوس بين أوراقه عن قصد، وقد كتبته ممثلة صغيرة بارعة كانت تأمل يوماً أن تكون هي الليدي شارنلي بعد موت اللورد.

- ماذا تعني؟

- إنني أعني الفتاة التي اشتركت مع القاتل في تدبير الجريمة. والقاتل ليس سوى هيجو أخي اللورد ريجي شارنلي. وكلنا نعرف أن هيجو كان العضو الفاسد في عائلة شارنلي وكان يأمل أن يرث اللقب والأملاك بعد مقتل أخيه، وقد أشرك معه في تدبير الجريمة وتنفيذ الخطة عشيقة له.

ثم استدار ساترويت نحو الليدي شارنلي وقال: ما اسم الفتاة التي كتبت ذلك الخطاب؟

- مونيكا فورد.

وهنا قال ساترويت للكولونيل: هل كانت مونيكا فورد هي التي نادت اللورد حين ذهابه إلى قاعة السنديان يا كولونيل؟

- نعم، إنني أذكر ذلك على وجه اليقين.

لكن الليدي شارنلي اعترضت قائلة: هذا مستحيل. لقد قابلت مونيكا فورد بعد عثوري على الخطاب وأكدت لي أن علاقتها بريجي شارنلي كانت حقيقية، وليس من المعقول أن تبلغ فتاة مثلها هذه الدرجة من البراعة في التمثيل.

وعندئذٍ نظر ساترويت إلى الممثلة سبيسيا جلين وقال بهدوء: أعتقد أن هذا كان بمقدورها لأنها ولدت ممثلة بطبيعتها.

فقال بريستو: ولكن هناك نقطة واحدة لا تزال غامضة، إذ كيف استطاع القاتل أن يزيل الدماء بسرعة من أرض الشرفة التي حدثت فيها الجريمة؟

فابتسم ساترويت وقال: لم يكن هناك الوقت الكافي لإزالة الدماء طبعاً، ولهذا نقل السجادة من قاعة السنديان ووضعها فوق بقع الدماء في الشرفة، وهذه العملية لا تستغرق أكثر من دقيقة.

- هذا معقول جداً، ولكن كان لا بد من إزالة آثار الدماء بعد ذلك على كل حال.

- طبعاً، طبعاً. إن شريكة القاتل قد انتهزت فرصة الشائعة التي تدور حول شبح السيدة ذات الوعاء الفضي، فتسللت ليلاً في ملابس بيضاء وهي تحمل وعاء فضياً به ماء لتزيل آثار الدماء. وكانت مطمئنة إلى أن الذي قد يراها سيفر هارباً منها.

ثم ابتسم ساترويت وتابع يقول للآنسة جلين: أعتقد أن هذا هو سبب سقوط فنجان القهوة منك حين ذكرنا شبح السيدة ذات الوعاء الفضي، أليس كذلك؟ وأعتقد أنك أحسست بالخوف حين رأيت صورة «موت المهرج»، وقد خطر لك أن شخصاً ما قد رآك مع القاتل أثناء ارتكاب الجريمة؟

وهنا صاحت الليدي شارنلي وهي تحدق النظر في وجه الممثلة: أنت مونيكا فورد، أليس كذلك؟

فوثبت مونيكا فورد (أو سبيسيا جلين) ودفعت ساترويت

بعيداً عنها، ثم وقفت أمام السيد كوين ترتعد وتقول: كنت أنا على حق إذن حين شعرت يومذاك أن هناك من يراقبنا. لقد كنت أنت هناك ترانا من وراء النافذة المطلة على الشرفة، لقد رأيت ما فعلنا أنا وهيجو... وحين رفعت وجهي إلى النافذة خيّل إليّ إنني رأيت لمحة من وجه إنسان يراقبنا ثم يختفي، وهذا ما جعلني أعيش في رعب طيلة هذه السنوات. وحين رأيت الصورة وأنت فيها واقف وراء النافذة تعرفت عليك. ولكن ما الذي جعلك تلزم الصمت كل هذه الأعوام؟

فقال السيد كوين بهدوء: ربما كي يستريح الموتى في قبورهم.

وفجأة اندفعت سبيسيا جلين نحو الباب وفتحته، ثم قالت في تحد: افعلوا بي ما شئتم، فقد أحببت هيجو حب الجنون وساعدته على تنفيذ خطته التي لم تصل بنا إلى النتيجة المطلوبة، وقد مات هو محسوراً في النهاية، أما أنا فإنني أجيد التمثيل والتنكر كما قال ذلك الرجل العجوز، ولن يستطيع رجال الشرطة في العالم أن يقتفوا أثري. ولسوف أرحل عن البلاد في خلال أسبوع... وداعاً.

وصفقت الباب وراءها، ثم لم يلبث الجميع أن سمعوا باب المنزل الخارجي وهو ينصفق أيضاً. وهتفت الليدي شارنلي والدموع تنحدر من عينيها: يا زوجي العزيز المظلوم! لقد عشت حياتي كلها وأنا أحقد عليك بسبب ذلك الخطاب المزيف، أما الآن فأرجو أن تنام في قبرك بسلام، ولسوف أعود إلى القصر وأشيع فيه نبضات الحياة من جديد.

ثم نهضت وتقدمت نحو ساترويت وقبلت وجنتيه وهي تقول: شكراً لك يا سيد ساترويت، لقد أعدتني إلى الحياة ثانية بعد أن كنت أعيش نصف ميتة.

ثم صافحت الفنان بريستو بحرارة وقالت له هي تبتسم في عينيه: دعني أهنئك على عبقريتك، وأرجو أن أراك في أقرب وقت تزورني في قصري، ولعلك تستطيع أن تستلهم منه لوحات أخرى.

فلما انصرفت قال ساترويت لبريستو: ماذا تنتظر؟

- أنتظر ماذا؟

- ألم تشعر أنها تبادلك العاطفة؟

فاضطرم وجه الفنان الشاب ثم نهض مرتبكاً وهو يقول: أترى هذا حقاً؟

والتفت ساترويت نحو السيد كوين ليقول له شيئاً، لكنه وجده قد رحل بغتة كما أتى بغتة، فهز كتفيه وقال: لا ريب أنك قد حدثت السيد كوين بلقائك مع هذه السيدة في القطار، فأوحى لك برسم هذه اللوحة وهو يعرف ما سيترتب عليها من نتائج. إنه لا يهمه الحادث نفسه بعد أن انتهى، ولكن يهمه الأحياء من العشاق. وأرى أنه قد نجح أيضاً هذه المرة في إعادة الحياة إلى سيدة لا تزال في رونق الشباب وإلى بعث خفقات الحب في قلبها لفنان شاب. أسرع يا صديقي والحق بها، ولن تندم.

* * *

المحتويات

السيد كوين ٥
شبح النافذة..... ٢٩
علامة في السماء ٥٧
بيت الأسرار..... ٧٩
صوت في الظلام ١٠٥
الطائر الكسير الجناح.....١٢٥
آخر الدنيا ١٥١
ذات الوعاء الفضي.....١٦٩